أحمد عطية الله

مغامرات مونشهاوزن



مغامرات مونشهاوزن

نقلها عن الألمانية

أحمد عطية الله

[القاهرة]

ملتزم الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه





الليلة الأولى

جلسَ البارونُ فون مُونْشَهاوْزِن بيْنَ أصدقائِهِ من هُواةِ الصيدِ؛ وأخذَ يفرُكُ يديه كعادتِه كلما جاشت نفسُه ببعضِ الخواطرِ واستثارته بعضُ ذكرياتِ الفروسيَّةِ . وبعدَ أن فرغَ من طعامِه وشرابِهِ أخذَ يدورُ بعينيهِ ويبتسمُ ابتسامةً ساخرةً ، وكأنَّه أرادَ أن يعقدَ أبصار الجالسينَ حولَه رغبةً منه فى تشويقهم لما سيقصه عليهم ويرويه لهم .

حتىٰ إذا شملَ السكونُ المجلسَ بدأ « البارونُ فُونْ مُونْشهاوْزن » حديثه قائلاً :

— أصدقائى الأعزاء ، ويا رفاقَ الصيد !

أعودُ بكم مرةً أخرى إلى الماضى لأقصّ عليكم طرفاً من أخبارِ مُغامراتى . فقد كنتُ أيها السادةُ فى يومٍ من الأيامِ شاباً ممتلئاً فتوةً شديدَ المراسِ لا أعبأُ بالمخاطرِ ولا تثنى عزيمتى الأهوالُ والمغامراتُ ، ويكفى أن أقصّ عليكم مثلاً من هذا الماضى الطريف :

حدث فى مساءِ أحدِ الأيامِ وقد كادت الشمسُ أن تختفِىَ وراءَ الأُفْقِ أن كنتُ عائداً إلى بيتى بعد نهارٍ طويلٍ قضيتُه فى الصيدِ حتى حطّ علىّ التعبُ ، وملأ عيونى النومُ ، ممتطياً صهوةَ جوادى الأشهبِ ، بَيْدَ أنّى لم أكن أُحِسُّ من شدةِ التعب بما يدورُ حولى ولم أتنبّهْ إلا وقد وقفَ جوادى فجأةً على حافة مستنقعٍ .

نظرتُ يميناً ويساراً فإذا بالطريقِ قد انتهت عند حافّةِ هذا المُسْتَنْقَعِ ، ولكنها كانت تستمرُّ بعدَ ذلك ؛ فتذكرتُ حينذاكَ أن الأمطارَ التى كانتْ تَهْطِلُ بغزارةٍ منذ بضعةِ أسابيعَ لا بُدّ وأنها سبّبت هذا الفيضانَ الذى غمرَ الطُرُقَ واكتسحَ الجسورَ . فلم يكن أمامى إلا أن أفكّرَ فى التوِّ والساعةِ فى وسيلةٍ أخرى للوصولِ إلى بيتى .

أيجوزُ لى أن أعودَ من حيثُ أتيتُ لأبحثَ عن طريقٍ آخرَ ؟ لا ! إن هذا الحلّ لا يُرضينى : لم أقلّب الرأىَ طويلاً بل نكأتُ الجوادَ

بمهمازى فارتفعَ على ساقيْهِ الخلفيتينِ وما هى إلّا ثانيةٌ حتى كنتُ وإيّاهُ فى الهواءِ، مع أنَّ جوادى كانَ باديَ الإجهادِ بعد نهارٍ حافلٍ بالصيدِ الوفيرِ (إذ أنَّ جُملةَ مااصطدتُه فى ذٰلِك اليومِ كانَ عشرينَ أرنبًا ـ أو قلْ ـ ثلاثينَ على الأقلِّ، وهذا ما سأُحدِّثـكُم به فيما بعدُ).

كان عرضُ هـذا المستنقعِ لا يقلُّ عن عشرينَ ذراعًا وكان على جوادى أن يقفِزَ ستَّ مرّاتٍ على الأقلِّ ليصلَ إلى حافتِهِ الأُخرىٰ، فوكَزْتُه من جديدٍ فاندفعَ نحوَ المستنقعِ ولـكنَّهُ لم يَسِرْ طويلًا حتى انغرستْ سيقانُه فى الوحْلِ وكلما حاولتُ أن أدفعَهُ إلى الأمامِ كلما أخـذ يغوصُ فى الطينِ ولم تمضِ دقائقُ حتى كادَ يختفى، فلم يبدُ منه إلّا عُنُقُه!

ليس هنالك سبيلٌ للنجدةِ! فمـاذا تظنونَ يا أصدقائى قد جال بخاطِرى فى تلكَ اللحظةِ؟ لقد كانتْ فـكرةً جريئةً ولـكنها انتهت بنجاح!

لم أنتظرْ طويلًا بل ألْصَقْتُ رُكبتى بظَهرِ الجوادِ حتى أصبحتُ وكأَنى مُسَمَّرٌ به، ثم أمسكتُ جدائلَ شعرى بيدِىَ اليُمنَى التى كانتْ خاليةً طليقةً، ثم جذبتُ نفسى جذبةً قويّةً إلى أعلى فانْسَلَتَتْ بذلِكَ سيقانُ الجوادِ المغروسة فى الطينِ، وكان من شدة الجذبة أن ارتفعتُ وإيَّاهُ فى الهواءِ، وما أن أحسَّ الجوادُ بحريَّته حتى أَخذَ فى القفزِ، وما أن وصلَ

إلى حافةِ المستنقعِ حتّى أخذَ يركضُ دونَ أن يتوقّفَ حتى وصلْنا سالمينَ إلى البيتِ .

...

إنّ الصيّادَ البارعَ، ياسادتى، لا يقلُّ ذكاءً ولا نبوغاً عن القائدِ العسكرىِّ الذى يحاولُ أن يفتحَ عَنوةً مدينةً من المُدُنِ المحصَّنَةِ التى امتنعَ عدوُّهُ بأسوارِها وأبراجِها . إن الصيادَ البارعَ كالقائدِ البارعِ يحتاجُ كلاهُما إلى شدَّةِ اليقظةِ والافتنانِ فى ابتكارِ الوسائِلِ التى توصلُه إلى غايتِه وتذليلِ العقباتِ المفاجِئَةِ .

فقد يحدث أن يُفاجأَ الصيّادُ بنفادِ ما معه من الرصاصِ ، فيُشكلُ عليه الأمرُ إذْ أن البارودَ وحدَهُ لا يكفى لإطلاقِ البُنْدُقيّةِ ، عندَ ذلِكَ تبدو قدرةُ الصيادِ وبراعَتِه . وإنى لأقصُّ عليكم حكايةً على سبيلِ المثالِ.

حدثَ فى ذاتِ صباحٍ أن كنتُ أنظرُ من نافذةِ القصرِ الذى أعيشُ فيه ، وكانَ إلى جِوارِهِ بُرْكَةٌ فسيحةٌ فإذا بها مُغطّاةٌ بأسرابٍ من الإوَزِّ البريّةِ !

وأنا ــ كما تعْلمونَ ــ من الناسِ الذينَ لا يُعْنَوْنَ بالزينَةِ والتجميلِ فى كلِّ صباحٍ ، لهذا ما وقعَ نظرى على هـذا السربِ من الطُّيورِ حتى



هَرْوَلتُ من مكانى وحملتُ بندُقيَّتى على كَتِفِى واندفعتُ نازلاً حتى أنى لم أكن أعرِفُ موضِعَ درجاتِ السلَّمِ ؛ إذ اجتاحَتنى نَشْوَةٌ عجيبَةٌ فلم أتوَقَّفْ ثانِيَةً حتى وصلتُ إلى البركَةِ .

ولكننى عندما حاوَلتُ أن أُعَمِّرَ بندُقيَّتى وجدت أنى نسيتُ

الرصاصَ، لهٰذا أعملتُ فِكرى فِى وسيلةٍ لإشعالِ البارودِ؛ فتحت غطاء خِزانةِ البُندُقيّةِ وأسْنَدْتُ خشبَتَهـا إلى خدّى، عندَ ذٰلِكَ جَمَعْتُ قبضةَ يدِى وأهْوَيْتُ على عينى بخَبْطَةٍ قويةٍ فى اللحظةِ التى حرّكتُ فيها زِنادَ البندقيةِ . فما أمّلتُه وانتظرتُه حدثَ بالفعلِ، إذ من أثر تلك الخبطةِ القويةِ التى هويتُ بها على عينى انبعثَ شَرَرٌ كافٍ أشْعَلَ تراب البارودِ، فانطلقتْ البندقيةُ وأصابتْ الهدَفَ فبلغ نصيبى من هٰذِهِ الطلقةِ ثلاثين إوَزّةً بريةً .

...

وفى مَرّةٍ أُخرٰى خرجتُ لِأُجرِّبَ بندقيّةً جديدةً فى بعضِ الحقولِ فأخذَ كلبى يطارد سربًا من السُّمانِ حتى شالَ من موضعِهِ وحطَّ فى مكانٍ قريبٍ منى ـ فثارتْ فى نفسِى رغبةٌ مُلِحّةٌ لاقتناصِ بعضهِ ـ إذ كنْتُ فى مساءِ ذَلك اليومِ قد دعوتُ جماعةً من أصحابِى لتناوُلِ العشاء معى ـ والسُّمّانُ كما تعرفونَ من الطيورِ التى تصلُحُ لإعدادِ طبقٍ فاخِرٍ على المائدةِ .

ولـكنّ سوءَ الحظِّ كانَ مُلازِمى إذ أنى وجدتُ جرابَ الخُرطوشِ خاليًا؛ ولـكننى لم يُسقطْ فى يدى، بل حشوتُ البندقية بتُرابِ البارودِ



وسدَدْتُ الموضعَ بقطعةٍ من الفلّين ثم بَرَيتُ مِدَكّةَ البارودِ حتى أصبح طرَفُها كقلم الرصاصِ، وأنفذْتُها إلى مكانِ البارودِ وأخذتُ أُكرِّرُ ذلك حتى اشتعلَ، فانطلقَتِ البندقيّةُ ـ وهكذا حقّقتُ أمنيَتِي فعدتُ إلى البيتِ ومعِي إثنتي عشرةَ سمانةً.

...

والصيادُ الماهرُ، يا أصدقائي الأعزاء، ليس من الضروريّ أن يكونَ عبداً لبندقيته في كلّ مرّةٍ. بل إنه قد يبلغُ غايتَهُ باستخدامِ مايقعُ في يدهِ

مُصادفةً . وأضربُ لكم مثلاً ما جرى لى فى بلاد لِتْوانِيا إذْ خرجتُ ذاتَ مرّةٍ أضربُ فى الغاباتِ وقد حَمَلْتُ بُندقيّتى على كَتِفى بينما كنتُ أَعْبثُ بمسمارٍ كبير بين أصابعى . وعلى حين غفلةٍ ظهرَ أمامى ثعلبٌ ذوفروةٍ سوداءَ جميلةٍ وأخذَ يقتربُ إلى ناحيتى دونَ أن يرانى .

لقد كانت فروةُ ذٰلك الثعلبِ فاخرةً ثمينةً حتى أننى وجدتُ من خطلِ الرأى أن أُطلِقَ عليه رصاصةً تُمَزِّقُ هٰذه الفروة الجميلة . انتظرتُ قليلاً فرأيتُ الثعلَبَ يلجأُ إلى جذعِ شجرةٍ من شجرِ البلوطِ وهو هادئٌ يدورُ برأسِهِ ذاتَ اليمينِ وذاتَ اليسارِ ؛ عندَ ذٰلك مرَّتْ برأسى فكرةٌ بديعةٌ ، فسرتُ على أطرافِ أصابعى واختفيتُ وراءَ شجرةٍ قريبةٍ ونزعتُ الخرطوشةَ من بندقيتى فى هدوء ووضعتُ فى مكانها ذلك المسمارَ فلما تم ذلك سدّدتُ البندقيةَ صوبَ الثعلبِ وأطلقتُها : أَتَدْرونَ يا سادتى ما حدثَ ؟

نظرتُ فوجدتُ الثعلَبَ فى مكانه لم يتحركْ إذ أنه تَسَمَّرَ بجذعِ الشجرةِ وقد نفذَ ذٰلك المسمارُ فى ذَيلِهِ . عند ذٰلك أخرجتُ سكينَ الصيدِ وتسلَّحتُ بكُرباجِ الكلابِ واقتربتُ من الثَّعلبِ فى اطمئنانٍ ، وأخذتُ أسلخُ فَرْوَهُ الثمينَ وكأنى كنت أَخلَعُ قميصاً ، حتى إذا أصبحَ عارياً

أطلقتُ سَراحَه فراحَ يَعْدُو إلى الغابَةِ حيث رفاقُه من الثعالبِ ، التى جعلتْهُ موضعَ سخريتها وفُكاهَتِها ! ولـكن من يدرى فلَرُبّما نبتَ له فروٌ جديد بعد ذلك !

أراكم تضحكون يا أصدقائِى ! ولـكنْ حُسنُ الحظِّ كان حليفى بسببِ ذلك المسمارِ الذى كنتُ أحمِلُهُ فى يدى مصادفةً ولولا ذلك ما نجَحتْ فِكرَتِى .

بعدَ هـذا الحادثِ بأيامٍ كُنْتُ فى طريقى عائداً إلى البيتِ ، وكان البارودُ قد فرغَ منى ، وبينا أنا كذلك إذا بخنزيرٍ بريٍّ هائجٍ يطلُعُ عَلَىَّ - وكلنا يعرف الفزَعَ الذى يتملَّكُ النفسَ لِمثلِ هـذه المفاجأةِ - لهذا لا أظنُّ فيكم من يلومُنى عَلَى أنى حاولتُ الهرَبَ مُلتجِئاً إلى أقربِ شجرةٍ .

كانت تلك الشجرةُ التى احتميتُ بها صغيرةً غضّةً حتى كادت غصونُها تنوءِ بحَمْلى ، وما كدتُ أسحبُ ساقِى من فوقِ الأرضِ حتى كانَ ذلك الخنزيرُ يهْجُمُ على الشجرةِ ، لذا نَجَوْتُ بأعجوبةٍ من فتكِهِ بى . ولمـا كان قد جاءَ مُنْدفِعًا بقوةٍ هائلةٍ صوبَ الشجرةِ انغرسَتْ ناباه الطويلتانِ فى جِذْعِها الغضِّ حتى برزَ طرفاهما من الجانبِ الآخرِ بمقدارِ قيراطٍ !

لم أُفَكِّرْ طويلًا بل هبطْتُ من الشجَرةِ وبحثتُ عن قطعةٍ من حَجَرِ الصَّوانِ بردْتُ بها الطرفينِ الناتئيْنِ من نابَيِ الخنزيرِ ، ومن ثَمَّ عُدْتُ إلى بَيْتِي .

وفى اليومِ التالى انكفأتُ راجعًا أحملُ بندقيتى فى صحبةِ جماعةٍ من الفلّاحينَ معهم عَرَبةٌ نقلٍ ؛ ولم أسألْ نفسى كيفَ قضى غريمى ليلَته مُسَمَّراً بجذعِ الشجرةِ ، بل اكتفيتُ بطلقةٍ من بندقيتى صوَّبتُها إلى جَبْهتِهِ . وأى حيوانٍ ماردٍ كان ذلك الخنزيرُ ؟ ! إنَّ أعرفَ الناسِ بشئونِ الصيدِ ليستحيلُ عليه أن يتصوَّرَ ضخامَتَهُ ، إذ بلَغتْ زِنَتُهُ خمسةَ أطنانٍ ، وإنَّ ذلك لشىءٌ نادرٌ بين الخنازيرِ البريَّةِ .

الليلة الثانية

لا رَيبَ أنكم سمِعتم ياأصدقائى عن القديسِ « هُوبارتَس » راعى الصيادين . كما سمعتم ولا شكَّ عن ذلك الوَعْلِ العجيبِ الذى رُسِمَتْ بين قرنيه علامة مقدسةٌ رائعة . وقد جعلتُ من عادتى أن أُحيي عيدَ هذا القديسِ فى الثالثِ من شهرِ نُوفَمبر من كلٍّ عام واقدِّمَ إليه القرَابين . كما قدمتُ آلافاً من المرات العليقَ إلى هذا الوَعْلِ من فاكهة الكَرَز .

وإنى لأتركُ أمرَه لأحدِّثكم بحكايةٍ جرت لى مع وَعْلٍ عجيبٍ آخر: فقد حدث مرة أن صادفتُ وَعْلًا نادراً فى بعضِ البرارى وكان جِرابى قد خلا من البارود ، ولعلِ الوَعْلَ عرف ذلك لأنه اقترب منى دون أن يَتَوَجَّسَ منى خيفةً ، وأخذ يحَدِجُنى بنظرةٍ هادئةٍ مستقرة.

فأثار منظرُه عندي فكرةً عجيبة ، عند ذلك فتحتُ خِزانةَ بندقيتى وملأتُها بحفنةٍ من نوى الكَرَز - إذ كنتُ أتسلَّى بأكل بِضعَةِ أرطالٍ منه - وكان الوعْلُ ينظرُ إلىَّ وكأنه يبتسِمُ ساخراً ، فصوبْتُ بُندقيَّتى المحشوة بالكرز نحوَه وأطلقتُها بين قرنيه . فأخذ الوَعْلُ ينفضُ نفسَه

ويهزُّ رأسه مراتٍ عدة ويحنى عُنُقَه وكأنه ينحني إليَّ مسلِّماً ، ثم أولانى ظهره واختفى فى الغابة . وكم أسِفتُ لأننى لم أجد ماأقتنِصُ به هذا الوَعِلَ النَّادرَ ، وكان ما فعلتُه معه من باب الفكاهة اللطيفة ، حتى أننا كنَّا إذا أكلنا كَرَزاً بعد ذلك أخَذَ بعض المتفكهين من أصدقائى يجمع نوى الكَرَز كذخيرة لى إذا ما خرجت لصيدِ الوعولِ فى المستقبل. ولكن سُرعانَ ماأصبحتْ هذه الأفكوهة مُمِلَّةً ممجوجة .

ثم حدث بعد عامين من ذلك أن كنا نصطاد فى تلك البرِّيةِ نفسِها ، وإذا بوَعلٍ نادرِ المثالِ يبرُزُ أمامَنا وقد نبتت على ظهرِه شجرةٌ بلغ ارتفاعُها نحواً من عشَرة أقدامٍ . فتذكَّرتُ بالطبعِ حكايَةَ البُندقيةِ المحشُوَّةِ بنوى الكَرَز ، كما أحسستُ بأننى المالكُ الشرعى لهذا الوَعِلِ بما يحمل ، لذلك أسرعتُ وأَطلقتُ عليه رصاصة من بندقيَّتى فخرَّ فى التوِّ صريعاً ، فكانَ سَببا لوليمةٍ فاخرةٍ من الشواء والحلوى ، إذ أن تلك الشجرة التى على ظهره كانت محمَّلةً بأطيبِ الكَرَز الشهىِّ ، الذى نبتتْ شجرتُه من ذَلك النوى الذى أطلقته على الوَعلِ منذُ سنتين .

نعم كم ذا يقابلُ الإنسانُ من عجائب ! وإنى لأذكرُ لكم على سبيلِ المثالِ حكايةً غريبةً فعلاً . فصيدُ الفيرانِ بطُعمٍ من لحم الخنزير أمرٌ

معروف ، ولـكنكم لم تسمعوا كيف اصطدتُ ثلاثَ عشرةَ بطّةً بقطعةٍ من لحم الخنزير .

فقد حدث ذاتَ صباحٍ أن كنتُ أُعِدُّ نفسى لرِحلةٍ طويلةٍ ، وبينما أنا فى الطريقِ مَرَرْتُ ببحَيْرَةٍ صغيرة يسبحُ فيها سربٌ نافرمن البطِّ، ولم يكن معى إلّاطلقةٌ واحدة لاتصيب إلّا بطّةً واحدةً،ثم تُفَرِّقَ هذا السِّرْبَ على وجهِ الماء ، ولـكنّنِي صمّمت على اقتناصه جميعاً، إذ كنت فى تلك الليلةِ قد دعوت جماعةً من الأصدقاء للعشاء .



كان ذلك اليوم مشئوماً من مطلعه إذْ قابلتُ فى صباحه « كاترينَ » تلك الساحرةُ العجوزُ ذاتُ الشعرِ الأحمر ، فانقضى اليومُ دونَ أن يواتينى

الحظُّ في الصيد . وها أنذا وليس معي إلّا طلقةٌ واحدةٌ وقد نفد البارودُ دونَ رَجعةٍ ، فماذا أنا صانعٌ بهذه الطلقةِ الفريدةِ وأمامي الصيد وفير؟

وبينا أنا أحاولُ حلًّا لهذه المشكلة تذكَّرت قطعةً من لحم الخنزير كنتُ أحملها زاداً ليومي هٰــــذا فأخرجتُها من جرابي ومَدَدْتُ حَبْلًا طويلًا كان معي وعَقَدْتُ به قطعة القَديدِ كما يفعلُ صيّادُ السمك، وألقيتُ بطرَفه في الماء ثمّ اختفيتُ وراءَ حشائش الشاطئ وطَفِقْتُ أشاهِدُ البطّةَ الأولى وهي تقترب من الخيط، وما أسرعَ أن ازدردتْ قطعةَ القديدِ، ولمّا كانتْ عَسِرَةَ الهضمِ أخرجتها بعدُ قليلٍ دونَ أن تهضِمَها ، وبقي الخيطُ في جوفها؛ فما أن برزَتْ من مؤخرها حتى بلعتها البطةُ الثانيةُ التي لفظتها بعد قليلٍ دونَ أن تهضِمها ، وبقي الخيطُ في جَوْفِها ، وهٰكذا حتى ثلاث عشرةَ بطةً نُضِّدَتْ في الخيطِ كما يُنضدُ خرزُ العِقْد .

أحسَسْتُ بلذةٍ عميقةٍ لهٰذا النجاحِ ، فشدَدْتُ طَرَفَ الحبلِ حولي وسحبتُ الصيدَ من خلفي عائداً إلى البيتِ ، بَيْدَ أنني أخذتُ أُحِسُّ شيئًا فشيئًا بأن الطيورَ بدأتْ تفزَعُ وتهيجُ . وما هي إلّا لحظةٌ حتى وجدْتُ نفسي مُرتفِعاً في الهواء . وما حدثَ هو أن هٰذه الإِوَز البرِّية التي كانت ما زالت حيّةً بعدَ أن أصابَها ما أصابَها، أخذَت تُرفرِفُ بأجنحتِها

ثمَّ تطيرُ جماعةً فحملتني معها وارتفعت بي في الهواء.

وبعد أن زالت عني غُمَّة الدهشةِ استمدتُ إتِّزاني فنشرتُ ذيلَ مِعْطفِي الكبيرِ في الهواء كالشراعِ، وأخذتُ أديرُه كما أدير دفَّةَ القاربِ متجهًا صَوْبَ منزلي، ولما اقتربتُ من مدخنةِ البيتِ مرَّتْ برأسي فكرةٌ جريئةٌ، فأخذتُ أهْصُرُ رقبةَ الإوزِّ وزَّةً وَزَّةً، وهكذا بدأتُ أهبطُ رُوَيْداً رُوَيْداً حتَّى حططتُ على المِدخنةِ، وما أن رآني الطاهي حتى تملَّكتْه الدهشةُ، وكان في ذلك الوقتِ يوقِدُ النارَ إعدادًا للعَشاء. وكان رفيقي في هذه الرحلةِ العجيبةِ كلبي بيكاس، وهو كلبُ صيدٍ ماهرٍ، فأخذ يتبعُني وهو يَهُزُّ رأسَه في عنف وانزعاج، ولم يصمتْ عن النُّباحِ ونَبْشِ الأرضِ حتَّى أشاعَ الاضطرابَ في حَظيرةِ الماشيةِ: نعم، نعم إن قديدةً من اللحمِ التي تصيدُ الفئرانَ اصطاد بها مونشهاوزن الإوَزَّ!

ومن المحقق أن الحظَّ والصُّدفةَ المحضةَ كانتا سببًا في نجاحي ولكن ليس ذلكَ قاعدةً مطردةً، إذ قد يجرُّ الخطأُ في بعض الأحيانِ إلى حظٍ غير مقصودٍ.

...

لقد حدَث مرةً أني صادفتُ في غابةٍ من الغابات عِجلًا بريًّا تتبعُه أمُّه ، فرفعت بندقيّتي بيد أني تَرَدَّدْتُ بينهما، فلم أقَرِّرْ أيَّهما الّذي أجعله هدفًالي، ولـكن بعد فترةٍ من هذا الترددِ انطلقتِ البندقيةُ فإذا بالصغيرِ يفزعُ ويهرَبُ مسابقًا الريحَ ، أما الأمُّ فقد وقفت جامدةً في مكانها وكأنّها تبحثُ عن شيءٍ مّا حولَ المكانِ . ولما اقتربتُ منها وجدت بين أسنانها خصلةً من ذنَبِ صغيرِها ؛ ولما دَقَّقْتُ النظرَ وَجدتُها - ويالَلغرابةِ - عمياءَ !

وبالطبعِ لم أتردَّدْ ، بَلْ تقدَّمْتُ إليها وأمسكْتُ بطرفِ الخصلةِ وسحبتُ الأمَّ ورائي حتى وصلتُ إلى منزلي، فلما رأتْ زوجتي هذه البقرةَ الوحشيةَ أمامَها تدخلُ المطبخَ تولّاها الذُّعرُ .

...

وقد يجد الإنسانُ نفسَه في بعضِ الأحيانِ في مأزِقٍ من المآزِقِ التي لا تُجدي حيلةٌ من الحيلِ للتخلصِ منه إلّا فيما ندر، كما حدثَ مرّةً عند مااعترض طريقي في غابةٍ من غاباتِ بولندا دبٌّ شرسٌ ، وقد أمسى المساء ونفد مني البارود .

أخذَ هذا الحيوانُ الكاسرُ يقترِبُ مني وقد مدّ ذراعيه وفتحَ فمَه ،

بينما كانت الأفـكارُ تتزاحَمُ فى رأسى لعلى أهتدى إلى وسيلة للنجاةِ ، وما كنت أدرى ما وطّن عليه العزم : أيهصرنى بين ذراعيه ، أم يُفتِّتُ رأسى بنطحةٍ قاتلة ! وكانت أصابعى تعبثُ فى جيوبى باحثةً عن رصاصةٍ أطلقها عليـه ، ولـكننى لم أجد إلا بضعة أحجارٍ من أحجارِ الزنادِ كنت أحمِلها لشأنٍ من شئونى .

وأخذ الدّبُّ يقترِبُ منى رويداً رويداً حتى بدأتُ أحسُّ بزفراتِه الحارّةِ تلفح وجهى ، فما كان منى إلَّا أن قذفتُ بحجرمن هذه الأحجارِفى فمه المفتوحِ ، ولاشكفى أن ذلك قد آذاهُ بعض الشىء لأنه استدارإلى يساره وأخذ يعوى بصوتٍ يدلُّ على الألمِ البالغ ، وكانت هذه الحركة سريعةً للغاية ، حتى أننى عند ماصوبت قطعةَ الحجر الأخرى كان قد ولّانى ظهره فأصابت دُبُرَه !

وما هى إلّا بضعُ ثوانٍ حتى كان الحجران قد تقابلا فى جوف الدبِّ وقدح الواحد منهما الآخرَ فأشعلا فى جوفه نارًا ، فأخـذ الدُّبُّ يُزمجِرُ ويتلوّى من شدةِ الألمِ ثم انفجر بقوةٍ عنيفةٍ ؛ عند ذلك تنفست الصُعَداء إذنجوتُ من خطرٍ محقَّق ؛ فتعلمتُ بعد هذه التجربة أن أكونَ دائمًا على قَدَم الاستعدادِ للدفاع عن نفسى إذا حدث وعدت ثانيةً إلى بولندا ، إذأن

الدببة تنتشرُ بها كما تنتشرُ عندنا الصراصيرُ فى الربيع .

. . .

حدث فى وَارْسُو أن عقدت الصحبةَ بقائدٍ بولونىٍّ مشهورٍ، تعرفون اسمه ولا شك ، وهو الجنرالُ « سكرْبُودَانسْكِى » الذى اشترك فى الحرب التركيَّةِ وأصيبَ بشَظِيَّةٍ فى عَظْمِ جُمْجُمَتِهِ فاستعاضَ عنها برقيقةٍ من الفضةِ . وكنا نتقابلُ فى كلِّ يومٍ فى حانة حيثُ كانَ يحتسى النبيذَ بشراهةٍ .

ومما أثارَ عجبى أن الجنرالَ إذا ما ارتفعت الخمرُ المجريةُ إلى رأسهِ وأصبحت وجوهُنا حمراءَ قانيةً بفعلِ النبيذِ المُعَتَّق، كان من عادته أن يرسلَ أصابعه تجوسُ خلالَ شعرهِ، وما أن تمضى دقيقةٌ حتى يختفى احتقانُ وجههِ ويعودَ إلى صحوهِ من جديدٍ، ولم يجدْ رفاقُنا فى ذلك أمرًا غير عادى ؛ وسرُّ ذلك أن الجنرالَ إذا ما بدأ يفقد وعيَه يحرِّكُ الرقيقةَ الفضيةَ التى تغطى كسرةَ الجمجمةِ من مكانها حتى يتسرب منها بخارُ النبيذ .

ولكى أزدادُ اقتناعاً بحقيقة الأمر جلستُ مرَّةً إلى جانبِ الجنرالِ كما هى عادتى، وأشعلتُ ثِقاباً ولكننى بدلاً من أن أوقدَ به غليونى قربته إلى رأس الجنرالِ المخمُورِ فإذا بلهيبٍ أزرقَ لطيف ينبعثُ من مكانِ الفتحةِ.

ولما لَحَظَ الجنرالُ هذه المناورةَ تركنى وشأنى وأخذ يبتسم باغتباط، فبدا فى تلك الساعةِ كأنه القديس نيقولا تحيط به هالةٌ من النور.

وقد أعجبتنى هذه الفكرة جدًا لطرافتها، لذلك رحت إلى أحد الصاغةِ المشهورين بالبراعةِ وطلبتُ منه أن يصنع لى غطاء فضيًا كذلك أرفهُ بى عن نفسى إذا لعبت الخمرُ برأسى؛ ولكنه أصرَّ على أن يفتحَ ثقبًا فى جمجمتى، أو أن أنتظر حتى الحربَ القادمة لكى تتهيأ لى فرصةٌ لأُصاب بشظيةِ قنبلةٍ طائرةٍ. أما عن الطريقة الأولى فلم أجازفْ بنفسى، أما عن الثانية فإننى ما زلتُ أنتظر نشوبَ حربٍ ثانيةٍ، وإن كنتُ قد بدأتُ أحس بأنه لا ضرورةَ لذلك نظرًا إلى أن الحاجةَ إلى خمرٍ قويةٍ ليست ملحةً عندنا كما هى الحال فى تلك البلادِ الشمالية الباردة.

...

وقد يسألنى سائلٌ: أىُّ كلبىَّ أشدُّ براعةً؛ أهى فِينِس أم الكلبُ بيكاس؟ والجواب على ذلك أن كليهما بارعٌ فى فن من فنونِ الصيدِ؛ أما فينسَ فذاتُ أنفٍ قوىِّ الشمِّ، أما بيكاسُ فكلبُ صيدٍ مثابرٍ لا يقرُّ له قرارٌ، ولأ قصَّ عليكم حكايةً من حكاياته:

حدث بعد أن تزوجتُ بقليل أن أبدت زوجتى رغبة فى أن تصحبَنى

فى رحلةٍ للقنصِ فركبتُ جوادى وسرتُ فى المقدِّمةِ لأبحثَ عن صيدٍ ما ، ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى وقف كلبى بيكاسُ قُبالةَ سربٍ من البطِّ البرىّ يبلغُ ما لا يقلُّ عن مائةِ بطةٍ . فانتظرتُ حتى تحضُرَ زوجتى ، وكان فى صحبتِها مساعدى وخادمٌ من الخدمِ ، ولما طال بِىَ الانتظارُ تملكنى القلقُ فعدتُ أدراجى حتى إذا وصلتُ إلى منتصفِ الطريقِ سمعتُ أصواتًا ونَهْنَهةً تبدو وكأنها صادرةٌ من مكانٍ قريبٍ ولو أننى لم أرَ حوالى أحداً من قريبٍ أو بعيدٍ .

وكان من الطبيعى أن أنزل عن فرسى ، فوضعتُ أذنى على الأرضِ أتسمعُ مصدرَ الصوتِ فإذا به ينبعثُ من بطن الأرض ، ثم أخذتُ أميِّزُ صوتَ زوجتى وكلامَ مساعدى وخادمى . فتحيرتُ فى أمرى ، إذ كيف أنتهى بهم الطريق إلى هذا المكانِ ، وأكبر ظنى أنهم دخلوا منجم فحمٍ مهجورٍ فانهارَ عليهم على بعدِ تسعينَ ذراعًا من سطح الأرض على الأقلِّ .

فأسرعتُ إلى القريةِ القريبةِ وأحضرتُ جماعةً من العمالِ لإنقاذِ هؤلاء المنكوبين ، وبعدَ جهدٍ جهيدٍ تمكنّا من إخراجِ الخادمِ ثم فرسِهِ ، ثم مساعدى وحصانِهِ ثم زوجتى وفرسها التركيةِ ، ولكن الغريبَ فى الأمرِ أن أحداً منهم لم يُصبْ بأذًى مع أنهم وقعوا من ارتفاعِ ستمائةِ قدمٍ . نعم يا أصدقائى إنه الحظُّ .

ومن البديهى أننا لم نستمرّ فى ذلك اليوم بعد هذا الحادث فعُدْنا إلى البيت ، وهناكَ وجدتُ رسولاً ينتظرُنى ويدعونى إلى مهمةٍ سريعةٍ فسرتُ على الأثرِ ، ولم أقضِ ساعةً فى الراحةِ ، وسلختُ فى هٰذه المهمةِ أربعةَ عشر يوماً ولا أريدُ أن أحدثَكم فى هٰذه المرةِ عما جرى لى فى قلعة «ويزل» إذ أنَّ حديثى اليومَ عن كلبى بيكاس. فما أن رجعتُ من هذه الرحلة حتى سألتُ عنه . ولكنَّ أحداً لم يَرُدَّ على سؤالى إذ كانوا يظنون أنه صحبنى فى رحلتى الأخيرة .

عند ذلك طرأَت علىَّ فكرةٌ ـ وقلتُ لنفسى : أيجوزُ أن يكون الكلبُ حتى هٰذه الساعة فى حِراسةِ سربِ البطِّ ؟ فدفعنى الأملُ والخوفُ إلى البحثِ عنه فى ذلك المكانِ نفسِه الذى كنا فيه منذ أسبوعين . وهناك ـ ويا لَلعجبِ ـ رأيت بيكاسَ الأمينَ فى مكانه لم يبرحه ! فما أن ناديتُه حتى وثبَ على قدميْهِ واندفع إلىَّ فهاجت الأوز، وكان من حسن حظى أن اصطدتُ خمساً وعشرين منها بطلقةٍ واحدة . ولا أظنُّ أحدًا منكم ياأصدقائى قد مرت به مثل هذه التجربة السعيدة .

أما بيكاسُ الشجاعُ فكان قد أهلكه الجوعُ وهدَّهُ التعبُ والإعياء حتى أنه ما كان ليمشى إلا زحفاً ولا يقدر على شىء إلا لحس

يدىّ . فما كان منى إلا أن حملتُه على فرسى وعدتُ به إلى البيتِ حيثُ كانت رعايةُ زوجتى إيّاه سبباً لانتعاشهِ.

وفى خلالِ ذلك كنتُ أفكرُ مليًّا فى حل مشكلةٍ لا أجدُ لها حلاً، إذ قضيتُ يومين أحاولُ أن أقتنصَ أرنباً كبيراً ولكنَّ الحظَّ لم يواتنى، فكانَ بيكاسُ يسوقه إلى مكانى ولكنى مع ذلك ما كنتُ لأستطيعَ أن أسددَ عليه النارَ . وما أنا من الذينَ يؤمنونَ بالسحرِ والساحراتِ إذ لا أُصدقُ إلا ما تعترفُ به حواسّى الخمسُ . ثم تيسّرَ لى فى النهايةِ أن أقتنصَ



هذا الأرنبَ العجيبَ بطلقةٍ صائبةٍ فلما اقتربتُ منهُ رأيتُ ـ ويا لَلْعجبِ ـ أن لهذا الأرنبِ أربع أرجلٍ أخرى في ظهره . عند ذلك تكشَّفَ لي سِرُّهُ وعرفتُ سببَ سرعةِ جريه: فكان إذا أجهدهُ العدوُ انقلبَ (كما يفعل السبَّاحُ في المــاء) على ظهرهِ وأخذَ يعدو بأرجلهِ الأربع الأخرى التي تكون أثناء ذلك في فترة من الراحة .

ولا أظنُّ أحدًا منكم قد صادفَ في رحلاتهِ مثل هـذا الأرنبِ العجيبِ ، وأصدُقكم القولَ بأني لم أرَ مثيلاً له مرَّةً أخرى .

الليلة الثالثة

تَذْكرون يا رِفاق الأعزاء ماحدَّثتكم به في ليلَتِنَا الماضيَة عن كَلبي وأما الليْلَة فسأُحَدِّثكم عن طرائف كَلْبٍ آخر .

لم تكنْ كَلبَتِي « زفيرتا » أقل براعةً من كَلْبي بيكاس الذي سَمِعْتُم شيئاً عنه . فقد حَدَثَ في يوم مِنَ الأيام أن خَرَجْتُ للصيد ولم أُرد أن أصْطحبها لأنها كانتْ حامِلًا إذْ ذاك ، وكان مِنَ الْعسير عليْها أن تَعْدو بسُرْعَةٍ كافيةٍ . ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتَّى بدَا لَنا أرنب بريٌّ وكان نادِراً في ضَخامَتِهِ فما رَأَتْهُ كَلبَتِي حتَّى انْطَلَقَتْ وراءهُ ، فقلتُ لنَفْسي دَعْها ونفسَها تجري كما تشاء ، وأخَذْت أسير هَوْناً بجوادي فسُرْعان ما اختفى الأرنب أمام عينيّ، وبَعْدَ قليلٍ سمعت نُباحًا ضَعيفًا ولكنني لم أعرف ماهو ولم أميِّز صاحبه .

ثم إنني اتَّجهت صَوْبَ مصدر هذا الصوت، فلما اقتربتُ منه رأيتُ مَنْظَراً عَجبًا . رأيتُ تلك الأرنبَة وقد ولَدَتْ خمس أرانبَ صغيراتٍ وفي الوقت نفسه كانتْ كَلْبَتِي قدْ وضَعَتْ خمسة أَجراء كذلك ، إذ كانتْ صاحبة ذلك النُّباح الخافت، ثم تقدمتْ زفيرتا وحَمَلَتْ الأرنبة الكبيرة بفمها

كما اصْطادَ كلُّ جَرْوٍ مِنْ أَجرائِها أَرنبًا مِنَ الأَرانب الصغيرة . وهكذا بدأتُ الصيد بكلبٍ واحدٍ وأرنبٍ واحدةٍ ، ثم عُدْتُ إلى البَيْتِ مُصْطَحبًا ستَّة كلابٍ وستَّ أَرانِبَ . لقد أَثار هذا المنظرُ ضحك زوجتى وأشاع المرح فى البَيْتِ .



كانتْ زفيرتا كَلْبَةً شَديدةَ العَدْوِ جَمّةَ النَّشاط لا تهدأ ولا تستقر لهذا أخذت أقدامُها في الانبراءِ من كثرةِ العَدْوِ والرواح فأصبحت قصيرة حتى اقترَبَ بطنُها من الأرض ، فلم يَعُدْ لها مجال في رحلات الصيد . لهذا استخدمتُها كبعض كلاب الزِّينة. وعند ماتقدَّمت بها السِّنُّ عميَتْ لهذا كنْتُ أعقِدَ حَوْلَ ذَنبِها فانوسًا صغيراً تسيرُ به في البيتِ . هـذِهِ بعضُ طرائف كَلبتي العزيزة زفيرتا يا أصدقائي الأعزاء .

. . .

حَدَثَ بَعْدَ أن انتهى موسمُ الصَّيد الذي رويتُ لكم بعض أخباره أن عَقَدْتُ العزْمَ على السَّفَرِ إلى روسيا ، وعند ما وصلْتُ إلى وارسو في بولندا رأيتُ أن أقضي فيها أياماً، وكان ذلك من سوء الحظِّ لأنَّ الشِّتاء كانَ قد أقبلَ وكان شتاءً غير عادي سَقَطَتْ فيه الثّلوج وتراكمتْ حتّى غَطّت الوديان ، ولَكِنَّ ذلِكَ لم يمنعني مِنْ مُتابعَةِ السَّفَرِ . وسُرعان ما تعوَّدْتُ احْتمالَ ذلِكَ البَرْدِ القارِسِ فلم أَعُدْ أحسُّ بشِدَّتِه .

كانتِ الثّلوج قد أخَذَتْ تغطِّي كلَّ شيء حَوْلِي حتّى كنت أقضي اليوْمَ بأسْرِهِ دونَ أن أمُرَّ بقريةٍ أو خانٍ مِنَ الخانات أو بيتٍ مِنَ البيوت، وكنتُ في سَيْرِي مُتَّجِهاً دائماً صَوْبَ الشِّمالِ مُهْتَدِياً بشروق الشَّمس وبمواقع النجوم ، ولَكِنَّ العجب تملَّكني إذ كنتُ أعلمُ بَعْدَ دراستي

للخرائِط الجغرافيَّة الخاصَّة بهٰذِهِ المنطقة أنّها مُغطّاة بغابات كثيفَةٍ بينما لا أرى حوالىّ إلّاصحارى ثلجيَّةً جَرْداء لا ترتفع فيها شجرةٌ ولا يقومُ فيها جدارٌ.

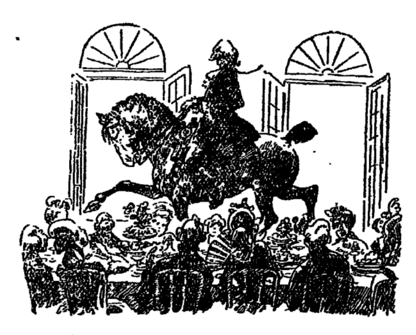
وعند ما أقبَلَ اللَّيل كان التّعَبُ قَدْ تملّكنى فنزلتُ عن جوادى وأخرَجْتُ بعضَ الخبز وقَسَمْتُهُ بينى وبيْنَ جوادى إذ لم يكُنْ هُنالِكَ ما يأكله فى هٰذه البريّة الجرداء الخالِيَةِ مِنَ العُشْبِ. وعند ما تلفّتُّ حَوْلِى وجَدْتُ قطعةً مِنَ الخشبِ كطرَف جِذْعِ شجرةٍ مُدبّب، فربَطتُ لجامَ الجوادَ به ثم تمدَّدْتُ على الثّلجِ على بِضْعِ خُطواتٍ منه بعْدَ أنْ جعلتُ مِنَ السّرجِ وسادة لرأسى، ومِنْ حُسن الحظّ أنْ خفتَتْ العواصف الباردة وأخذَت تهبّ ريح جنوبيّة لطيفةٌ؛ فنمت نوما هادئا إذسُرْعان ما شملنى النّعاسُ فلم أنتَبِه إلّا وكان النهارُ قَدْ تفتّحَ.

وعند ما تَلَفَّتُ حوالىّ ظننتُ أنّى أحلُمُ إذْ وَجَدْت نَفْسى راقداً فى فناء كنيسةِ قريةٍ مِنَ القُرَى، فلمّا بحَثْتُ عنْ جوادى لَمْ أجِدْله أثراً. عِند ذٰلِكَ طرَقَتْ سمعى أصوات مختلطة. فما أن أدرتُ رَأْسى نحْوَ مصْدَر الصوتِ حتَّى تبيّنْت صهيلَ جوادى وقد انبعَثَ من الفضاء فوق رأسى كما ألفيْتُ جماعةً مِنَ الفلّاحين متجمعين حَوْلى وقد ارتسمتْ على وجوههم

الدهْشَة وهم يُشيرون بأصابعهم إلى حيثُ كانوا ينظرون فى الفضاء. فماذا رأيت؟ هُنالِكَ على قمة برج الـكنيسةِ رأيتُ جوادى مَرْبوطًا! مَنْ ذَا الَّذى يا تُرى قَدْ حمله إلى ذٰلِك المكان؟ ولـكن بعْدَقليل تجلّت لِى الحقيقةُ سافرةً.

كانت هٰذِهِ القرية قد غَمرَتْها الثّلوج فى اللَّيْلة الماضيةِ، وكَانَ أهلها قد تحصَّنوا فى البيوت، فحبسوا أنفسهم بها وما كنتُ قَدْ رأيته فى ضوء النُّجوم الباهت وتحت تأثير لمانِ الثّلج فحسِبْته جذع شجرة كان ذٰلِكَ فى الحقيقةِ قمّةَ برج الـكنيسة فَرَبَطْتُ حصانى به، ثم إنَّ الثّلج أخَذَ فى الذّوبان أثناءِ نَوْمى وهكذا طفقت أهبطُ رُوَيْدًا حتَّى استقرَّ بى الرقاد على الأرض.

كان أوَّلُ ما فعلْتُه أنْ عملتُ على تخليص حصانى من مكانه هـذا فأخرجْتُ مسدَّسى وأطلقته فقطعتُ بذلِكَ اللجام المعقود به؛ فما كان من جوادى الشُّجاع إلّا أنْ وثَبَ من ذلِكَ الارتفاع إلى الأرض وهو يهز رأسَهُ وذيله فرحًا بى. وكانَ صاحبُ الخان رجلا طيِّبَ القلب لأنّه أسرع وأحْضرَ طعامًا لـكل منّا؛ وبينما كانَ جوادى يلتَهِمُ مقداراً مزدوجًا من القُرْطُم طفق صاحب الخان يقصُّ علىّ أخبار الثّلوج الّتى تسقط فى كلّ شتاء بمثل هذه الشّدة فى بولندا. وبعْدَ أنْ كافأتُه على ضيافته ببعض النُّقودِ الذَّهبيّة (وإنْ كانَ قد تمنَّعَ كثيراً) تابعْتُ رحلتى فى طريقٍ كانَتْ حافلة بالأشجار بعْدَ أنْ ذابَتْ عنها الثّلوج.



بعد بضعة أيام وصلت مقاطعة لتوانيا ونزلتُ ضَيفًا على الكونت «بُرزُوبوفيسْكى» فى ضيعتِهِ وهو من النبلاء المعروفين، وقصدتُ بذلك أن أستريح بعضَ الوقت وأَستجمّ قبل أن أعاوِد رحلتِى الطويلةَ إلى روسيا .

حدث مرةً أن كنا جلوسًا حول مائدةِ الشاىِ فإذا بأصواتٍ ترتفع من مربطِ الخيلِ وإذا بصائحٍ يقولُ بأن حصانًا حديثَ العهدِ قد انفلت زمامه فما أُبهتُ فى بادئِ الأمر مما جَرى بل بقيتُ فى صحبة السيدات حولَ المائدَة، ثم إذا بالنداء يستحيل صراخًا وطلبًا للنّجدة، فتلفّتُّ فوجدت هذا الحصانَ قد ثارتْ ثائرته وأَخذ يرفُسُ ويَعَضُّ مَن حولَه حتى أن السائسَ الماهرَ عجز عن الاقترابِ منه، فعم الجميعَ الذُّعرُ، عندذلك صاحَ

الكونت «برزوبوفيسكى» بى قائلاً: «هلمَّ يامنشهاوزن فليس من أحدٍ سواك يروّض هذا الفرَس الجامحَ».

فما كانَ منّى إلا أن وثبتُ وثبةً واحدَةً فاعتليت ظهر هـذا الجوادِ الهائجِ، وما كانت إلا برهة حتى تملَّكتُ زمامه فعادَ إلى هدوئِه.

وأبدتْ السيدات رغبةً فى أن ترى هذا الجوادَ المستوحش؛ فرقت به خلالَ النافذةِ المفتوحة إلى غُرفةِ الشاى وأخذتُ أطوفُ به عدةَ مرات حول المائدةِ بخطواتٍ متزنةٍ متناسقة، ثم وثبْتُ فجأةَ عَلَى المائدة نفسها وأخذتُ أخطرُ ببراعةٍ فائقة بين الكؤوسِ الزجاجيةِ والأباريق والأطباق المرصوصةِ دون أن أتعثّر بها حتى علتْ الدهشةُ وجوهَ السيدات وتملك الكونت العجبَ لبراعتى هذه، فما كانَ منه إلا أن قدم إلىَّ هذا الجواد الأصيل هديةً وتذكاراً.

ولما علم البارون أنى جئت إلى روسيا لكى أشترك فى الحملة الحربية ضد الترك وهى التى يقودها المرشال مُونيج رغب فى أن يكون هذا الجواد بالذات فى خدمة جندىٍّ شجاع مثلى حتى يعيد ذكرى «بوكفالوس» جواد الإسكندر الأكبر المشهور.

الليلة الرابعة

أعودُ هذه الليلةَ لأقصَّ عليكم ما جرَى لى بعدَ أن أهدانى البارونُ البولندىُّ ذلك الجوادَ الجامحَ . فقد خرجتُ فى اليومِ التالى للرياضةِ فى بعضِ الحقولِ، وبينما كنت عائداً أدراجى شاهدتُ حيواناً ضخماً بيدَ أننى لم أميزْ حقيقتَهُ لأنَّ الظلامَ بدأ يُرخى سدولَه فبقيتُ فى شكٍّ من أمره ؛ فنزلتُ عن صَهْوَةِ جوادى وأسرعتُ الخطى لأتحقق عما إذا كانَ ذلك الحيوانُ كلبًا أو وحشاً من الوحوش. فما هى إلا بُرهةٌ حتى ألفيتُه أمامى وهو يقتربُ منى وقد فغرَ فاهُ ، عند ذلك تبينتُ أن ما أرى ليسَ كلبًا ولكنه ذئبٌ شرسٌ.

ماذا أنا فاعلٌ؟ فليس معى سلاحٌ أدافعُ به عن نفسى بعد أن تركتُ مسدسى على ظهرِ الجوادِ. أخذَ هذا الوحشُ يقتربُ منى خَطوةً خطوة. لقد كانَ الهربُ مستحيلًا فضلًا عن أنه ليسَ من عادةِ أهلى أن يتخلصوا من الأخطارِ بالأبُوقِ والفرار. فما كان منى إلَّا أن أدخلتُ جُمعَ كَفّى فى فمِهِ المفتوحِ وأخذتُ أدفعها فى حلْقهِ حتى اختفت ذِراعى بأسرها! ثم ماذا بعدَ ذلك؟ ها أنذا أُرانى وجهاً لوجْهٍ أمام هـذا الذئبِ، وماذا يحدثُ لو أننى



أخرجتُ ذراعي في هذه اللحظةِ ! ولكن بدلا عن ذلك دفعتُ بقبضتي في جوفهِ وقبضْتُ على أحشائهِ بيدِي وجذبْتُها إلى الخارجِ كما يَقْلِبُ أحَدٌ منا قفازَه! وهكذا قلبتُ ذلك الذئبَ فأصبحَ خارِجُه داخِلَهُ وداخلُهُ خارجَه ! وتركتُه هكذا ملقًى على الأرضِ حتى وجـــدَه البستاني في اليوم الثاني !

لم أُخبِر أحــداً بما جرى ، وإن كانَ البستانى قد أَشاعَ الحكايةَ التى عدَّها الجميعُ مخاطرةً عظيمةً ؛ وإنى أريد أَن أذكرَ بهذه المناسبةِ أَن هــذهِ الطريقةَ لمْ أَستخدِمْها فى كلّ مناسبةٍ ، كما جرى لى مرة فى مدينةِ بُطرُسْبرجُ .

. . .

حدثَ مرةً أنْ كنتُ أَسيرُ فى بعضِ شوارعِ بُطرسبرجَ الضيِّقةِ فإذا بكلبٍ هائجٍ مصابٍ بالصرع يتبعُنى ولم يكنْ معى من سلاحٍ أدافعُ به عن نفسى، فلم يكن بد من أَنْ أُسرعَ الْخُطى ولـكى أُيسر على نفسى سرعةَ العدْوِ نزعت مِعطَفى وأَلقيته على الـكلب ليتَلَهّى به فبذلك تتاحُ لى الفرصةُ للهربِ وهذا ما حدث ؛ ثم التجأت إلى بابٍ مفتوحٍ بينما أخذ الـكلب الهائجُ ينفُث غضبَه فى المعطفِ ؛ عند ذلك تجمع الناسُ وأَخذوا يضربونَ الـكلبَ حتى قتلوهُ ثم استخلصوا معطفى من بين أَنيابهِ وقد أصيبَ بتمزيقٍ طفيفٍ ، ولمــا عدتُ إلى البيتِ أرسلت بالمِعْطَفِ إلى الخياط فأصلحَ ما أُصيبَ به من تمزيقٍ ، ثم أعاده خادمى إلى مكانه فى صِوانِ الملابسِ .

فى صباحِ اليوم التالى استيقظتُ على صياحِ الخادمِ الذى أخــذ

يُوَلولُ قائلاً : « سيدى البارون ! سيدى البارون ! لقد أصيبَ معطفك بمرض الكَلِب » ففزعتُ من سريرى ووضعتُ عباءةً على كتِفى وتبعتُ الخادمَ إلى حجرةِ الملابسِ وهناك ويا لَلْعجبِ ! وجدتُ معطفى وقد أصيبَ بالكَلِب وحولهُ ملابسِى التى هاجَمها وقطَّعها إرَباً إرَباً . ثم رأيته أمامَ عينى يَهْجُم على حُلَّةٍ جديدةٍ يحاولُ افتراسَها وأخذ فى تمزيقها بوحشيةٍ كبيرةٍ. فما كان منى إلَّا أن ختمتُ هذه المأساةَ بطلقةٍ من مسدَّسى وأمرتُ بحرقِ هـذه الملابسِ خوفاً من أن تصابَ كذلك بعدوى الكَلِب .

إننى ألمحُ على وجوهكم أيها الأصدقاء مِسْحةً من الشكِّ كأنـكم فى ريبٍ مما رويتُه عليكم، ولـكننى أقسِمُ لـكم بشرفى كفارسٍ بأننى لم أَعْدُ ذكرَ الحقيقةِ .

. . .

وبمناسبةِ حكايةِ الذئبِ التى قصصتُها عليكم أريدُ أنْ أروِىَ لـكم قصةً أخرى عن الذِّئابِ الثلجيةِ .

حـــدثَ مرةً أثناء وجودى فى روسيا أن كنتُ عائداً إلى بطرسبرْجَ على زحّافةٍ ثلجيةٍ يجرها جوادٌ على غيرعادةِ تلك البلادِ ،

حيث تقومُ الكلابُ بهٰذهِ المهمةِ ، وما ان اقتربتُ من المدينةِ حتى برزَ لى ذئبٌ كبيرٌ شرسٌ قد أطارَ الجوعُ صوابَه فراح يتلمَّسُ فريسةً جديدةً . فلما رأيتُ ذٰلك وقد كنتُ لا أحملُ سلاحًا لم أجدْ بُدًّا من أن أرتمىَ على بطنى فى قاعِ الزحَّافةِ ، ومن العجيب أن ما تخيَّلْتُه حدثَ فعلاً . ذلك أن الذئبَ ـ وقد تملَّكتْهُ الشراسةُ ـ وثبَ على مُؤَخَّرِ الفرسِ وأخذَ يلتهمُها فلما أَمَضَّهَا الذُّعْرُ والألم راحت تسابق الريحَ بأكثرَ من ذى قبلُ ، فلما رفعتُ رأسى رأيتُ هـذا المنظرَ العجيبَ :

رأيتُ الفرسَ الدامِيةَ وقد الْتهمَ الذئبُ نصفَها الخلفىَّ بينما هٰذا الوحشُ يطاردُها وينهشُ بقيَّتها ، فما كانَ منى إلَّا أن وقعتُ عليه بالسَّوطِ من الخلفِ وهو يحاولُ بكلِّ قوتهِ أن يتقدَّمَ إلى الأمامِ ، فكانَ من ذٰلك أن



سقطت الفرسُ الميتةُ إلى الأرضِ وإذا بالذئبِ يحل مكانها بعدَ أنْ هَوَتْ عُدَّةُ الفرسِ على عاتقه !

لم أحاولُ بالطبعِ أن أدعَ الفرصةَ للذئبِ ليتنبَّهَ لما حدثَ ، بل طفقْتُ أهوى عليه بالسَّوطِ دونَ أن أتوقَّفَ وراحَ هو يجرُّ الزحَّافةَ ويسابقُ الريحَ سباقاً حتى دخلنا بطرسبرجَ فكانَ منظراً فريداً ؛ فلما وقفتُ أمامَ قصرِ المارشالِ مونيبجَ وأطلَّ علينا من نافذةِ القصرِ ورأى عربتى يقودُها ذئبٌ متوحشٌ لم يتمالكْ نفسَه من الضحكِ .

وإنى لأذكرُ واقعةً طريفةً حدثتْ لى مثلَ هذهِ الحكايةِ ؛ ولكن يكفيكم يا رفاقى الأعزاء ، ما حدَّثتكم به هذهِ الليلةَ .

الليلة الخامسة

مِنْ بينِ مغامراتِي الروسيةِ سأقصُّ عليكم هٰـذه الليْلَةَ حكايةً واحـدةً ، جرَتْ وقْتَ أن عُيِّنْتُ قائداً لفرقةٍ من فِرَقِ الهوسار إبَّانَ الحربِ التركيةِ واسْتَوْلَيْتُ بذٰلِكَ على حِصنِ « إِكْزاكُوفَ » وكانت الحامِيَةُ التركيةُ كبيرةَ العددِ إِذا قِيسَتْ بعددِ أفرادِ فرقتى .

فكَّرْتُ فى حيلةٍ أستثيرُ بها الفزَعَ فى نفوسِ أعدائى ، وذٰلك أننى أمرْتُ رِجالَ الجناحَيْنِ أنْ يُسفوا الرمالَ حتى كادَتْ تحجُبُهُمْ عن الأعيُنِ، بينما تركْتُ قلبَ الجيشِ الذى عزَّزْته بأكبرِ عددٍ من الرجالِ ظاهراً للعيونِ فلما اقتربْنا مِنَ الأعداءِ ، وأبصروا الزَّوابعَ الرَّمْلِيَّةَ الَّتى تُغَطِّى الجناحَيْنِ هالهم الأمْرُ وظنُّوا أنَّ وراءَ الأكمةِ ما وراءَها ، وأننا نزحَفُ بأضعافِ عددهم ، فهدَّ ذٰلك من ثقتهم بأنفسِهم ورُحنا نصيحُ « هورا » حتَّى غطَّى زعيقنا على صياحِهم المعروف « الله ياالله » .

سَرعانَ ما تراجَعَ التركُ ، ثم استحالَ تراجُعُهم إلى فرارٍ، فلما وصلْنا إلى الحصْنِ وجدناهم يتركونه من بوَّابَتِهِ الجانبيَّةِ ؛ وكانَ من الطبيعى أن أكونَ أوَّلَ من دَخلَ الحصنَ، وذٰلك لأنَّ نشوَةَ الظفَرِ كانتْ قد تملَّكتنى

فضلاً عن أنّ جوادي كانَ سبّاقاً يسير دائماً في المقدّمة ، وما ان تخطّيْتُ بوّابةَ الحصن الكبرى وقدْ هربَ منه آخرُ جنديّ من الأعداء ، حتّى انقفلتْ من ورائي بطريقةٍ آليّةٍ ، فسِرْتُ إلى رحبةِ السّوقِ حيث رأيتُ أن أجمعَ هناك شتات فرْقتي .

وكانت دهشتي عظيمةً عنـد ما وجدْتُ نفسي وحيداً في الرحبَةِ إذ كانت خاليةً مِنْ كلّ إنسانٍ ، وبينَما كنْتُ أفكّرُ في ذلك وقدْ طالَ بيَ الوقوفُ، رأيتُ أن أنتهزَ الفرصةَ لأسقِيَ حصاني الذي كانَ قد أنهكه التعبُ والعطشُ.فسِرْتُ إلى حوضِ ماءٍ قريبٍ وتركتُ الحيوانَ المسكينَ ليأخُذَ كفايتَهُ من الماء . وهنا جرت حادثةٌ غريبَةٌ .

تركتُ حصاني يُروى غُلّته من الماء بينما أخذتُ أفكّرُ في أمر جنودي، ثم مضَتْ فترةٌ من الزّمن ثمّ أخرى ثمّ أخرى والحصانُ لم ينقطع عنِ الشّرْبِ فعجبْتُ لذلك جدّ العجبِ ، فلما رفعتُ عيني عَرَضاً وجدتُ ـ ويا للغرابة ـ أنّي كنْتُ لا أمتَطي إلّا نصفَ حِصانٍ فقط وأن النصفَ الخلفي كان مفقوداً! لذلك كانَ الماءالذي يشربُه الحصانُ من فمِهِ يخرُجُ من نصفِه الخلفي المقطوعِ دونَ أن يروي له غُلّةً !

وبينما كنتُ حائرًا في أمْري إذا بخادمي يبْرُزُ من شارعٍ جانبي ،



وبعد أن قدّم إليّ فروض الاحترام والتهانى لهذا النصرِ المبينِ فسَّرَ لى سِرَّ اختفاءِ نصفِ جوادى .

وما حدث هُوَ أنّى عِنْدَما كنتُ أطارِدُ الأعداءَ عِنْدَ بوّابَةِ الحصن سقطت هذه فوقى فَشَطَرَتْ جوادى نصْفَيْن . ولما كُنْتُ مشغولاً بأمرِ هؤلاءِ التركِ الفارِّينَ أمامى لم أتنَبَّهْ لما حدثَ بلْ طفقْتُ أتبعُهُم هكذا حتى طَرَدْتُهُم مِنَ الْبَوَّابة الخلفِيَّة .

ثُمَّ إنّى عُدْتُ بعد ذلك إلى البوّابَةِ حَيْثُ وجدتُ النصفَ الخلفِيَّ لحصانى مكانَهُ وهو حيٌّ يتحرَّكُ، فما كانَ مِنِّى إلّا أن بَعَثْتُ فى طلبِ صانعٍ

السروجِ الذى خاطَ نِصْفَىّ الحصانِ وضم الواحد منهما إلى الآخر بِبَرَاعَةٍ عجيبةٍ ، غير انه لم يجدْ سوى بضع فروعٍ من شجر الغار للقيام بمهمته هذِهِ ؛ فكان من ذلك أن نبتَتْ هذه الفروعُ فيما بعد وامتدّت جذورُها فى جسمِ الحصانِ ، ثمّ اخْضرّت وتكاثفَتْ أوْراقُها حتّى أنّى كنْتُ أسْتَظلُّ بها أثناء هذه الحملةِ وإبان حملتى الثّانيةِ فى تركيا .

ففى هذه الحملةِ الأخيرةِ تمكّنَ السير عسكر بيالِى باشا من تضييقِ الخناقِ على الجيشِ الرُّوسِىّ حتّى كادَ يفتكُ به ، إذ دفعَهُ أمامَهُ إلى بَرْزخ بيركوب عندرأسِ شبْهِ جزيرةِ القِرْمِ لكى يقطعَ عليه المَدَدَ والمواصلات. لَقَدْ كانَ مَوْقِفُ الجيشِ الرُّوسِىّ مَيْؤُوسًا منه لولا ما قُمْتُ به من مُحَاوَلاتٍ جريئةٍ لتَعَرُّفِ مَواطنِ الضّعْفِ فى المعَسْكَرِ التُّركىّ ، لهذا تمكنّا مِنَ القِيامِ بمناوشَةٍ لتحويل أفكارِ القائدِ التركىّ وتَبِعْنا ذلك بِهُجُومٍ كانَ فيه النصرُ لنا .

وإنّى لم أذكرْ هذه الحكايةَ إلّا لِما تبعها من نتائجَ تتعلّقُ بى ، وَذلك أنّى بعدَ هذا المَجْهودِ الشاقِ المتواصل أثناءِ القِتالِ أحْسَسْتُ بعجْزٍ فى ذِراعى مِمّا اضْطرّنى إلى وضْعِها فى جبيرة مُدّةً مِنَ الزّمَنِ ، فكانتْ هذه علامَةٌ تمكّنَ بها التُّرْكُ من معْرِفةِ مكانى فأخَذُونى أسيرَ حرْبٍ .

الليلة السادسة

رِفاقى وأصدقائى الأعزاء .

وعدْتُكم أن أتحدَّثَ إليكم هذه اللّيْلةَ بما جرى لى أثناءَ اعتقالى فى اسْتَنبُول ؛ وها أنذا أبَرُّ بوَعْدى لكم .

لَمَّا كنتُ من كبارِ الضُبَّاطِ لم يكنْ مصيرى مصيرَ غيرى من الجنُود ، بل عُيِّنْتُ للخدمةِ فى حدائقِ السلطانِ ، وعلى التحقيقِ عُيِّنْتُ حارسًا للنَّحل السلطانى ! وكان هذا العمل ولا شكَّ مُثيراً للسَّأَمِ والمَلَلِ لضابطٍ مغامرٍ من الهُوسار مثلى ، ولكنْ على الإِنسانِ أن يتعلَّم .

لم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتى عرفتُ أسرابَ النَّحْلِ الذى وُضِعْتُ فى حِراستها نحلةً نحلةً ؛ فكنْتُ فى كلِّ صباحٍ أخرجُ بها إلى المُرُوجِ الخضراءِ ، حيثُ أقضِى اليوم أرعاها وألحظُها ، فإِذا أمسى المساءُ عُدْتُ بها إلى حظائرها ، لهذا كان عَسَلُها وفيراً شَهِيًّا .

وفى ذاتِ مساءٍ افتقَدْتُ نحْلَتيْنِ من هذا النَّحْل، فبينما كنتُ أبحثُ عنهما هنا وهناك وقعَتْ عيْنِى على دُبّيْنِ يحاولان اختلاسَ العَسَلِ المخزونِ، ولَمَّا لم أجد شيئًا فى يدى أطردهما به قذفتهما بفأسٍ فضِّيةٍ صغيرةٍ (وهى

الشارةُ الرسميّة لكلّ بستانيّ يعملُ في الحدائقِ السُّلطانيّةِ) ومع أنني لم أُصِبْ الدُّبَّيْنِ إلّا أنّهما فَزِعا وهربا. ولم أدْرِ من أين أقبلَ هذان الدُّبّانِ إلى استنبول أمِنَ البلقان؟ أمِن برْناس؟ أمِن هِلِيكون؟ وعلى كلِ حالٍ فقد كان ذلك سبباً لحكايةٍ عجيبةٍ.

وذلك أنني عنـد ما قَذَفْتُ الدُّبَّيْنِ بالْفأسِ الفضيّةِ بشدّةٍ أخَذَت الْفأسُ من عظم الشُرْعَةِ ترتفعُ في الفضاء، ثم ترتفعُ، ثم ترتفعُ، حتى نطحت القمرَ وتسمّرَتْ به!

والآن كيف السَّبيلُ إلىاسترجاعِ الفأسِ؟ وأيّ سلّمٍ يرتقيهالإنسانُ من الأرضِ حتّى يصِلَ إلى القمر؟

عنْدَ ذلك تذكّرتُ أنني أحملُ في جيْبِي مُنْذُ بضعَةِ أيام حبّةَ فولٍ أهدانيها بُسْتانيُّ القصْر ولعلّه جاء بها من بَغْدادَ أو وجدها في قبْرٍ من قبورِ الأولياء. فأسرعتُ وبذرتُها في الأرضِ وأنا لا أكادُ أصدِّقُ ما روَى لي عنها عمرُ قاسمُ البستانيُّ العجوزُ وعن سرعةِ نُموِّها وازْدِهارِها. فماذا حدث؟

ما إن وضَعْتُ هذه الحبّةَ في الأرضِ حتّى وَجَدْتُها تنْزُعُ وتتفتّحُ ثم تبدُو ساقُها وترتفعُ ثم تورِقُ وإذا بها أمامي شجيرةً كاملةً ثمّ إذا بها تتمدّدُ

ثمّ ترتفعُ فى الفضاء، وما هى إلّا بضعُ ساعاتٍ حتى امتدَّتْ فروعُها والتصقت بالقمر، فما كان منّى إلّا أن ارتقيتُ عليها حتى وصلتُ بدَوْرِى إلى سطح هذا الكوكب !

وهُناك وجدتُ أمامى مُعْضِلَةً عَوِيصَةً إذْ كان من العسيرِ علىّ أن أبحثَ عن فأسٍ فضيةٍ صغيرةٍ مُلقاةٍ على وجهِ القمرِ الذى كان يلمعُ بدَوْرِه كالفضةِ المجلوّة، ومع ذلك فقد تمكَّنْتُ من العثورِ على ضالّتى بعدَ بحثِ ساعاتٍ طويلةٍ . ولكنّ مشكلةً أخرى أشدُّ تعقيداً اعترضتنى . وذلك أن فروعَ شجرةِ الفولِ هذه ما أسرع أن جَفَّتْ بفعل حرارة الشّمْسِ الشّديدَةِ فتساقطَتْ وتركتنى وحيداً منْبوذًا على سطحِ القمرِ .

كان من حسن حظّى أن وقعت الفأسَ على كومةٍ من الأليافِ والأغصانِ الرفيعةِ الّتى توفَّرتُ على جدْلِها ، ففتلتُ مِنها حبلًا طويلًا متيناً ربطتُ طَرَفَهُ بأحد قرنَىّ القمر ، وتعلَّقْتُ به ممسكاً إيّاه بيدى اليُسرى، بينما قبضتُ على الفأسِ بيَدِى اليمنى . وكنتُ كلما أتدلّى مسافةً أقطعُ طَرَفَ الحبْلِ فوْق رأسى وأصله من تحتى ؛ وعلى هذا النحوِ من القطعِ والوصلِ أخذتُ فى الهبوط شيئاً فشيئاً ؛ حتّى إذا قاربتُ الوصول إلى الأرضِ أصبْتُ مع الأسفِ بكارثةٍ وأنا على بُعْدِ ميلين من

سطح الأرض ، فبينما كنتُ جالساً على بعضِ السُّحُبِ إذا بالحبْل ينقطعُ فأهوى فجأةً وبسرعةٍ هائلةٍ إلى سطحِ الأرضِ حتى كدتُ أفقدُ وعي .

وعند ما ثُبْتَ إلى رشْدِي وتلفتُّ حولى وجدتُ أن السقْطةَ كانتْ شديدةً ، حتى أنني انغرستُ إلى مسافةٍ بضع مئاتٍ من الأقدامِ فى جوفِ الأرضِ . وإن هذهِ الحادثةَ كثيراً ما يجعلُها رواةُ أخبارى ومغامَراتى موضوعاً لأكاذيبهم ومفترياتِهمْ! وما حدثَ فعلا هو أنى عَمدْتُ إلى نحتِ عشراتٍ من الدرجاتِ فى الحجرِ لأُخلِّص نفسى من هٰذهِ الهُوَّةِ السحيقةِ . وإن كان البعضُ يأخذُ عَلَيَّ الغباء لأنى استخدمْتُ أظافرى فى نحتِ هذه الدرجاتِ بينما كنْتُ أحملُ فأساً فى يدى ، ولكننى لا أجدُ ضرورةً لمناقضتِهم أو لمخالفةِ حقيقةِ الواقع !

...

وبمناسبةِ ما قصصْته عليكم عن الدببَةِ أروى لكم حكايةً أخرى تذكَّرتُها . فأنتم تعرفونَ كيفَ نصيدُ الذبابَ عندنا باستخدامِ شريطٍ مدهونٍ بالعسلِ ،فهذهِ الطريقةُ أَوْحَتْ إلىّ باستخدامها فى صيدِ الدِّببَةِ . وتفصيلُ ذلك أنى دهنتُ العارضةَ الخشبيَّةَ لعربةِ نقلٍ نستخدِمُها فى الحدائقِ بشىء من العسلِ ثم اختفيتُ وراء بعضِ الأخشابِ ، وما أن أرخَى



الليلُ أستارَهُ حتى ظهرَ دبٌّ وراحَ يطوفُ حولَ العربةِ عدةَ مراتٍ حتى اطمأنَّ بأن لا خوفَ ولا خطرَ منها، ثم تنبَّه إلى وجود العسلِ الذى ـ كما نعرف ـ يستهوى الدِّببَه فاقتربَ من طرفِ العارضةِ الخشبيَّةِ وأَخذَ يلحسُ العسلَ ثم يدفعُ فمَهُ المفتوحَ شيئًا فشيئًا حتى ـ وقد استهوته حلاوةُ العسل ـ نفذتْ العارضةُ من حلْقهِ وبطنهِ وبرزتْ من مؤخَّره! فلما وثقتُ من قيده هذا وضعتُ وتداً فى طرفِ العارضةِ حتى أَمنَعُهُ من الإفلات. وفى صباحِ اليومِ التَّالى بينما كان جلالةُ السلطانِ يتنزَّهُ فى الحديقةِ، لمحَ هذا المنظرَ، فما كانَ منه إلا أن تهالكَ ضحِكًا!

وكانت هذه الحادثةُ فرصةً ليتعرَّفَ السلطانُ عليَّ، وإن كانت الفرصةُ لم تطل كثيراً لأنه حدثَ بعد ذلك أن عُقِدَ الصُّلْحُ بين النّمسا وتركيا وتلا

ذلك عقد الهدنة بين روسيا والباب العالي، وكان من نتائجها تبادل الأسرى بين الفريقين وهكذا عدت إلى بلادى.

ولم يخطر لى على بال إذ ذاك أننى سأعود إلى استنبول مرة أخرى فى القريب العاجل؛ وكانت عودتى إلى الوطن على ظهر عربة خيل لا سيراً على الأقدام كغيرى من الأسرى العاديين نظراً لكونى من طبقة الضباط.

...

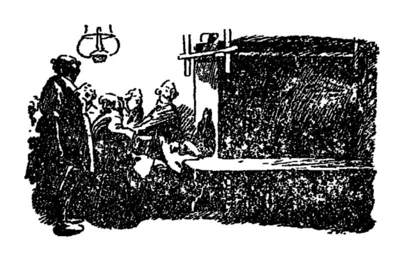
حدث أثناء هذه الرحلة أن كنا نشق طريقنا فى ممر جبلى ضيق لا يكاد يتسع إلا لمرورنا وقد ذكرت سائق العربة بأن ينفخ فى نفيره حتى يلفت أنظار القادمين من الجهة الأخرى تلافيا لما قد يحدث من تصادم، إذ أن الطريق لا يتسع لأكثر من عربة واحدة. وقد نفذ الرجل رغبتى بالفعل فأخذ ينفخ فى نفيره بكل عزمه، ولكن مع ما بذل من مجهود لم ترتفع نغمة واحدة من البوق وكان هذا أمرا عجيبا لا يمكن تفسيره. ومن سوء الحظ أن أقبلت فى تلك اللحظة بضع عربات محملة بجذوع الأشجار واعترضت سبيلنا، ولم يكن من وسيلة للتخلص من هذا المأزق؛ عند ذلك طرأت على فكرة!

وثبتُ من العربةِ وحللتُ الخيلَ منها، ثم انحنيْتُ وأمسكتُ بها ما بين عجلاتها الأربع، ورفعتُها إلى عاتقى بما عليها من أحمالٍ ثم قفزتُ فوق الحاجزِ الجانبيّ الذى يبلغ ارتفاعُه تسعةَ أقدامٍ حيثُ تركتُ العربةَ بأحمالها فى أمان، ثم عُدت وفعلتُ بالخيلِ مثل ما فعلت بالعربة، وهكذا أصبحتْ الطريقُ خاليةً فرّتْ العرباتُ القادمة إلى حالِ سبيلها. حتى إذا كانَ هذا عدتُ بعربتنا إلى الطريقِ، ثم حملتُ الخيلَ ثانيةً إلى مكانها.

. . .

أتعرفون ما حدثَ عندَ ما حَطَطْنا رحالَنا فى بعض الخْانات للراحة؟ هنالكَ إلى يمينِ المِدفأةِ الخضراءِ الكبيرةِ وضعَ سائقُ العربةِ قُبّعتَهُ كما علّقَ على الجانبِ الآخرِ نفِيرَه، وما إن انقضتْ برهةٌ حتى انبعثَ نغمٌ متكررٌ من النفيرِ، وتلت ذلك النغمات التى كانَ يرددُها السائقُ والتى لم تنبعثْ من نفيره فى الطريق، لأنها كانت قد تجمدتْ من شدةِ البرد فى ذلك اليومِ!

ولم ينته الأمرُ عند هذا الحدّ بل إنه ما من نغمةٍ أو أُغنيةٍ حاولَ السائقُ أن يرتّلها فى ذلك اليومِ كله وفشلَ فى ذلك بسببِ تجمدِها فى فتحةِ نفِيره إلا وانطلقتْ من النفير وهو معلقٌ إلى جانبِ المدفأةِ، فسمِعنا مزيجًا من الأغانى الروسيةِ الشعبيةِ كأُغنيةِ:



« مِنْكا ! أيتها الجميلةُ ، إنى أودِّعُك... »

« أرأيْتِ هذهِ الورداتِ الثلاثَ على خدِّكِ »

ودونَ أن يلمسَ السائقُ النفيرَ بشفتيهِ ارتفعتْ فى جوِّ المكانِ الأناشيدُ الحماسيةُ والأغانى العاطفيَّةُ مثل : « أوجستينُ أيها الحبيبُ . » « الأمير أوچين الفارسُ النبيلُ » ثم « صياد كُورفَاطَبْ » ثم اختتم ذلك بأغنيةِ المساءِ « والآنَ تنامُ الأحراشُ والأشجارُ . »

من هــذا ترونَ كم كانَ صديقُنا السائقُ راغبًا فى تسليتنا بأغانيه ! ومن المحتملِ أن أحدًا منكم لم تُتحْ له الفرصةُ ليمُرَّ بمثلِ هذهِ التجربةِ إذ أن البردَ فى ألمانيا ليسَ من الشدةِ والقسوةِ بحيثُ يجعلُ الأنغامَ تتجمدُ فى الهواءِ إذ أنَّ ذلك يحتاجُ إلى درجةٍ واطئةٍ جداً من البرودةِ .

وقد حـــــدث لى كثيراً أنِ التقيتُ ببعضِ الرحالةِ الذينَ كانوا

يضايقوننى بما يقصّونه علىّ من تجاربَ وحوادثَ لا يصدّقُها العقلُ ولا يقبلُها المنطقُ السليمُ. وإن خيرعقابٍ لهؤلاء الكذّابينَ أن نُديرَ أكتافَنا عنهم ونمتنعَ عن مُجالَستِهم، أما إذا سجلوا مفْتَرياتِهم فى كتبٍ فخيرُ عقابٍ أن يطوىَ القارئُ مثلَ هذا الكتابِ بعد أن يحدجَهُ بنظرةِ استخفافٍ وزرايةٍ!

وعلى النقيضِ من هــذا إذا كانَ راويةُ الأخبارِ رجلًا نبيلًا صادقًا، بينما المستمعونَ له يقابلونَ حديثَه بهزِّ الأكتافِ وبنظراتِ الشكِّ والريبةِ؛ لهـذا أستميحُ أولئك الذينَ يتشكّكونَ فى حقيقةِ مغامراتى عذراً راجيًا منهم أن يتَغيَّبوا أثناء اجتماعِنا القادمِ، إذسأروى عليكم بعضَ مغامراتى البحريةِ التى تفوقُ فى غرابتها جميعَ ما قصصتُه عليكم من مغامراتى البريةِ.

الليلة السابعة

ساعودُ بكم هذه الليلةَ يا أصدقائي الأعزّاء ؛ إلى الماضي البعيد .

لم أكدْ أتعدّى أيامَ طفولتي وأدخلُ مرحلةَ الفتُوّة حتى عَرَضَ عليّ أحدُ أقرباء والدتي أن أصحبَه في رحلة بحْريّة إلى جزيرة سيلان[1] حيثُ كان له عمٌّ يعمل حاكماً لهذه الجزيرة . فأثارتْ هذه الدعوةُ في نفسي رغبةً دفينةً للسّفر والسِّياحة .

كان علينا قبلَ أن نرْكَبَ البحرَ أن ننتظِرَ بعضَ الوقتِ في مدينة أمِسترْدَامَ حيثُ كان قريبي هذا في خِدمة الحكومة الهولنديّة التي عَهِدتْ له بحَمل بعضِ الوثائق والتّعليمات إلى حاكمِ الجزيرةِ المذكورةِ.وقد يكون من المستحبّ أن أقصّ عليكم شيئاً عن أخبارِ زيارتي لمدينةِ أمِستردامَ وما شاهدته فيها من طرائِف ، أو أن أصِفَ لكم بعضَ مُشاهَداتي في لندن التّي وصلْناها بعدَ ذلك ونحنُ في الطّريق إلى الشرق، بيد أنني أتركُ ذلك إلى مُناسبَةٍ أُخرى .

أمّا اليوْمَ فإنّي أكتفي بالكلام عن شخصيّة ممتازةٍ عَرَفتُها في العاصمة الإنجليزيّة ؛ هي شخصيّة سائق العَرَبة الملكيّة الّذى أعتقدُ أنّه يمثّلُ ـ ولا شكّ ـ الروحَ الإنجليزيّة حق تمثيل ، والذي قد

(١) كانت جزيرة سيلان مستعمرة هولندية الى عام ١٨١٥

أُستزعى نظرى بصفةٍ خاصّةٍ وأثّر منظرُهُ عندى أبلغ تأثيرٍ . ولم يكن ذلك لما كان يضعهُ فوْقَ رأسه من شَعْرٍ مستعارٍ كانت تتدلّى جدائله على كتفيْه، بل لأنّ صدرَه كان مُغطّى بلِحْيَةٍ كثيفةٍ تصِلُ إلى ركبتيْهِ وقد قُصّتْ قصًّا أنيقًا على هيئةِ الشعار الإنجليزى .

ولو أن مَلِكَ الإنجليز ـ وهو فى عربة التشريفة الكبرى ـ كان مطمح العيون لِما كان يرتديه من فاخر الزّىّ وهو فى طريقهِ إلى دار البرلمان، غير أنّ عيونى كانت مسمّرةً إلى سائق العربة الّذى كان بين الفينةِ والفينةِ يُفرقعُ بسَوْطِهِ فى الهواء بطريقة فنيّة وينشرُ حوْله جواً من العظمة .

أمّا عنْ رحْلَتى البحرية فلا أريدُ أن أتحدَّثَ عنها كثيراً ، إذْ أنّه ما من مُسافر على سطح الماء إلّا وصادفتْهُ رياحٌ وعواصفُ ، حتّى أن وصفاً لرحلته لا يكاد يخلو من ذكر الأنواء والزعازع ، لهذا فلن أتحدّث إليكم عما صادفت من شدّةٍ أثناء هذه الرّحلة، وأكتفى بذكر بعض مُغامراتى فى الصّيْد أثناء وجودى فى جزيرة سيلان .

خرجتُ فى يوْمٍ من الأيّام فى صُحبة الابن الأكبر لحاكم الجزيرة وأخذنا نتجوّلُ فى مكانٍ لا يبعد كثيراً عن ساحل البحر ، وكان صاحبى هـذا شابًّا قويًّا قد تعوّد الحياة فى البلاد الحارّة فلم يجهده السيرُ تحت الشّمسِ المُحرقة ، بينما التجأتُ إلى بعض الأحراش للقيلولةِ فى ظِلالها ،

فحرارةُ هـذه البلاد لا نُطيقها نحن معشرَ الأوربيّين ، ويكفى أن أقول إن أزرار مِعْطَفى المصنوعةَ من الرّصاص ذابَتْ بفعل الحرارة الشّديدة وإن بُنْدُقيّتى أصبحت شديدةَ الحرارة حتّى كادت تتوهّجُ من تأثير الشّمس ، وكانَ البارودُ يتفجرُ دون أن أضْغَطَ على زناد البُندقيّة ، وكان العرقُ يتصبّبُ من جَبينى كجداوُل الماء فلا تنقضى دقيقةٌ حتّى أُبلّلَ مِنديلى ثمّ أنشُرَهُ على قصبَةِ البُندقيّة المتّقدة ، وكنتُ أسمعُ نشيشَ الماء إذا ما لَمسَ المنديلُ المبلَّل المعدنَ المتوهِّج .

ثمّ سِرْتُ مُنفرداً لأتفرّجَ على عجائب الطبيعة حتّى وصلْتُ إلى نهر متدفق، وما إنْ حدَّثتُ نفسى بالجلوس قليلاً على ضفّته حتى استرعى سمعى صوتٌ غير مألوف ، فالتفتّ فإذا بأسدٍ هائل ضخم الجثّة واقفاً خَلْفى ينظرُ إلىّ شزْراً ، ولم أُفَكِّرْ طويلًا، بل جذبْتُ بُنْدُقيّتى وأطلقتُهَا على الفور فى وجه هذا الحيوانِ الكاسرِ وإن كنْتُ أعرفُ أن ذلك لا يُجدى فتيلاً إذ كانت محشُوّة برصاص لصيد الطيور. لقد كان ذلك مِنّى جُنوناً، لأنّ الأسد سكن بُرهةً فى مكانه ثمّ هزّ رأسه الكبيرَ وزأَرَ زئيراً هائلا ، واستعدّ للوثوب ، ولا أُكْذِبكُمُ الحقيقة أنّى فقدتُ رأسى حينما فكّرت فى الهرب، لأنه من المخجل فعلاً أن فارساً مثلَ «مونشهاوزن» يُسلم نفسه للفِرار! ولكنّنى ما كدت أديرُ وَجهى وأخطُو بِضعَ خطوات حتّى وجدت

تمساحًا مُرْعبًا ، وقد فتحَ فمه الواسع العريضَ مُستعدًّا لالتهام هذا الفارس!

تصوَّروا يا أصدقائى الأعزاء هذا الموقفَ المزعجَ ! فمِنْ خَلْفى يُقْعِى أسدٌ يستعد للوثوب ، ومن أمامى تمساحٌ هائلٌ ، وإلى يَسارى نهرٌ ثائرٌ متدفقٌ ، وإلى يمينى حرش تسعى فيه الحيّاتُ !. ولو كان «هِرْكِيُو ليسُ» فى مكانى لما فعل أكثرَ ممّا فعلتُ إذْ وقعتُ على الأرض وقد طارَ صوابى من الفزع ، إذ تأكَّدْتُ أننى ميِّتٌ لا محالة إمّا فريسةً فى فم التِّمساح أو بيْنَ مخالب الأسدِ .

وإنِّى أشكركم يا أصدقائى لهذه العاطفة النَّبيلة التى أراها مُرتسمةً على وجوهكم جزعًا منكم على مصيرى ! ولكنْ لا تيأسوا واطمئنُّوا فقد وقعتْ المعجزةُ . إذ لم تمضِ لحظات منذ سقوطى على الأرض حتّى سمعتُ صَوْتًا غريبًا ، فلمّا رفعتُ رأسى قليلًا لأتعرَّف جَلِيَّة الأمر رأيتُ ـ ويا للعجب ـ أن الأسد قد وثب فوْق رأسى فوقَع فى فم التمساح ! إنّه لمنظرٌ رائعٌ فعلاً أن ترى رأس الأسد وقَدِ انْحشر فى زَوْرِ التمساح ! بينما حاول كلٌّ منهما طاقتَهُ ليتخلَّصَ من الآخر . فما كان مِنِّى إلّا أن وثبت كالبرقِ واستللتُ مُديةً كبيرة وأخذتُ أطعَنُ بها الأسدَ حتّى سقط بجسمه الهائل عند قدمىّ . ثمّ أخذتُ أهوى بمؤخّر بندُقيّتى على رأسِ الأسدِ وأدفعهُ دَفعًا فى حَلْقِ التمساحَ ، الذي أخذ يصرُخُ

من الألَم. وبعدقليل عادإلىّ صديقى، فلما رأى مافعلتُ تملّكه العجبُ حتّى أنه لم يصدّق عينَيْهِ، وذلك أنى تمكّنتُ بطلقةواحدةمن القضاءعلى هاتيْنِ الفريستيْنِ

كان طولُ التمساحِ أربعَ عشرةَ قدمًا وسبع بوصات ، ولمّا سمع حاكمُ الجزيرة بهٰذه المُغامَرة النَّادرةِ أَرسل عربةً عليها جماعةٌ من الرجالِ الأشدّاء لحمل الفريستيْن .

أَمَّا التّمساح فقد حُنِّطَ فى الحال، وهو ما زالَ إلى اليَوْم من المَشاهدِ الفريدةِ فى مَتْحَفِ أمستردام. ومن اللّطيف أَن مُلَاحِظَ المَتحَفِ إذا ماجاء ذكرُ مُغامراتى هٰذه كثيراً ما يُضيف إليها من عِنده الشّىْءَ الكثيرَ ممّا يَقِفُ له شعرُ السّامِعِين فزعًا وخوفًا ؛ فمن ذلك قولُه: إن الأسدَ قداختنق بأكله فى بطن التمساحِ ، وإن البارونَ ذا الشهرة العالَميّة (وهو يعنينى بذلك) ما أَسرع أَن حزّ رأْسَ الأسد بمديته حالما برز من مؤخرِ التّمساح كما قطعَ نحو ثلاثة أَقدام من ذيل هذا الأخير !

وإنّى لا أُريدُ أَنْ أُعلِّق على هذا بكلمة واحدة ، إذْ يُؤْسِفُنى جدًّا أَنْ أَسمعَ هٰذِه الأكاذيبَ عنّى يلوكها مثْلُ هٰذا الرَّجُلِ الخبيثِ المُحتال ، كما أَنه من المؤلم أَنْ أَرَى فى هٰذا العصر الّذى نعيش فيه والّذِى تسوده الشكوكُ أَنْ يُرتابَ فى صدق فارسٍ يضعُ الشرفَ فى المرتبة الأُولى من حياته .

الليلة الثامنة

عند ما مررنا برأسِ الرّجاءِ الصالح ونحن فى طريقِ عودتِنا إلى أوربا . سألتُ القُبطانَ أن يَميل بنا إلى جزيرةِ « سَنت هِيلين » . فتعجّب من أمرى وقالَ :

« وما الذى يَستهويكَ لزِيارة هذه الجزيرةِ ؟ »

فقلت :

« لا شىء أكثر من أن أعرفَ ما تحويه هـذه الصخرةُ الشهيرة ؛ وإن كنتُ واثقاً من أنّها لا تَحوى شيئاً جـديرًا بالفُرجة ، إلا أنه من الصّعب علىَّ أن أمْحُوَ الكثيرَ من الذكْرياتِ التى تَفيض بها نفسى عند ماأسمعُ اسمَ «سنت هيلين» ؛ هذه الصخرةِ الجرداء التى كانت فى يوم من الأيام ذاتَ شُهرةٍ سياسيةٍ كبيرةٍ .

وما ان اقترَبْنا من الجزيرةِ حتى التقينا بسفينةٍ إنجليزية ، أخـذ أحدُ رجالها يُنادينا فى بوقٍ كبيرٍ مُستفسرًا عن اُسم سفينتنا واُسمِ قُبْطانِها، فظهر أن القُبطانَ الإنجليزىَّ صديقٌ لقُبطاننا ، فدعوناه لزيارتنا حيث قَضى فى ضِيافتنا بضعَ ساعاتٍ .

ولما عاد القُبطانُ إلى سفينته أُسرَّ إلىَّ قريبى الذى تحدثتُ لـكم عنه؛ بأن سفينَتنا ستُغيّرُ وجهتها إذْ أنها كُلِّفَتْ بحَمْل بعض الرسائلِ الهامّةِ إلى جُزُر الهند الغربيةِ .

وقد رحّبتُ بهذا التغيير المُفاجىء إذ أنّه أتاح لى الفرصةَ لأعرفَ حقيقةَ تيّار الخليج الدافىء الذى كثيرًا ما سمعتُ عن عجائبه، وها قدحان الوقتُ لـكى أتثبتَ منها بعينَىْ رأسى .

لقد كان الجوُّ حارًا لا يكادُ يُحتمل، وفى إبّانِ النّهار والشمسُ مُسلّطةٌ على الماءِ تَصلُ مياهُ المحيط إلى درجةِ الغَليان ، حتى إذاما أراد أحـدُ المسافرين أن يَطهى طعامًا ، من لحم أو بيض ، فما عليـه إلا أن يغمسَه فى هذا الماء الفائرِ وسُرعان ماينضج .

ومن غَرائب هـــذا البحرِ صُنوفُ الأسماكِ العديدةِ التى تَختلفُ شكلاً ولونًا وحجمًا، والتى راحتْ تَسبَحُ وتَلعَبُ حول السفينةِ . وكُنّا إذا اصطدنا بعضَ هذهِ الأسماك بالشِّصِّ أو الشّبكة فلا تلبثُ أن تفارق الحياة إذا ما قابلت الهواءَ وكنا نجدُها فوق ذلك مَطهيّةً معَدة للأكل فنلتهمها فى حينها دون انتظار، وكان طَعمُها مغريًا . وكنا نَعجَبُ لأمرها شديدَ العَجبِ ، ونتساءلُ : « كيف يتَسنّى لهذه الأسماكِ أن تعيشَ

وتلعبَ فى هذا الماء الذى فى دَرَجة الغَلَيان !» ثم وجدنا الجوابَ على ذلك معقولا مقبولا، فهذه الأسماكُ اكتسبت القدرةَ على احتمال الحرارةِ الشديدةِ بفضلِ العادةِ، فالماء - كما نعلم - يَسخن شيئًا فشيئًا. وهكذا تعودت الأسماكُ احتمالَ الحرارة تدريجيًّا حتى تصل إلى درجة الغليان . فإذا اصطيدت وخرجت إلى الهواء الباردِ فإن الحرارةَ تنفُذ إلى داخل السمكة فتقضى عليها وتسوّيها فى الوقت نفسه؛ لهذا لم يكن فى الأمرِ من غرابةٍ !

...

وفى أثناء عَودَتنا من جزيرة «نِيوفَوندلاند» إلى أوربا جرت لنا حادثةٌ تستحق الذكر ، ففى اليوم الثانى بعد أن تركنا هذه الجزيرةَ اصطدمت سفينتُنا اصطداماً عَنيفاً بشىء ظننّاه فى بادىء الأمر صَخرةً، ولكنْ عند ما رجَعنا إلى الخرائطِ البحريةِ لم نجد ذِكراً لصخورٍ فى هذه المنطقةِ، فلما أدلينا الدّلوَ الذى نقيسُ به عُمق الماء إلى مسافةِ خمسمائة قصبة لم يَصِلِ إلى قرارٍ. وكانت الصدمةُ عنيفةً فتحطّمتْ الدفةُ وتهشّم مُقدّم السفينة، وفَضلًا عن ذلك انفلقَت السّاريةُ الوُسطى إنفلاقًا رأسيًا ، كلُّ هذا ونحنُ لا ندرى سببا لهذه الفاجِعَة .

وأسوأ من هذا كله أنّ أحدَ الملاحين كان يعملُ إذ ذاك على رأسِ

السّارية فما إن حدثَ الاصطدامُ حتى رأيناهُ مقذوفًا فى الهواء ثم إذا به يسقط فى الماء على مسافةِ ثلاثةِ أميال على الأقل من السّفينةِ. ومع ذلك فقد وَاتاه الحظُّ فنجا بنفسه مِن الهلاكِ المحقّق، إذ تمكّن من أن يتعلق بذيلِ إوزةٍ بحريةٍ كبيرة فأمسك برقَبتها وأخـذَ يديرها هناوهُناك حتى اقتربَ من السّفينةِ بعد لأى وتَعب، وبذلك أنقذناه.

ولأضْربَنّ لـكم مثلًا آخَر لِشدّةِ هذا التّيار، ذلك أنّ جميعَ المسافرين ـ دونِ استثناء ـ كانت تَقذفُ بهم الأمواجُ فتدكُّ رؤوسَهم فى سقف المركبِ حتى إنّ رأسى من شدّة هـذا الدّكّ هبط إلى أسفلِ بطنى، ومرّتْ بِضعُ شُهورٍ قبلَ أن يعودَ رأسِى إلى مكانه الطبيعى من جسمى.

وفى مرّة أخرى عَرتنا الدهشةُ وتملكَنا العجبُ عند ما مررنا بحوتٍ كبيرٍ يَسْبَحُ على وجهِ المـاء، ولعلّه كان نائمًا، وقد غمرتهُ أشعةُ الشمسِ بالدفء والحرارةِ، ولعلّ اقترابَنا منه قد أزعجَه لأنه بدا عليه القلقُ، وأخذ يُحرّكُ ذَيلَه ويدُقُّ به عُرض السّفينةِ، ثم إنه جَذبَ الهلبَ الذى كان مُعلّقًا فى مُقدّم السّفينةِ وأطبقَ عليه بأسنانِه ثم سحبَنا وراءه نحوًا من ثلاثَ عشرة ساعةً قطعنا فى خلالِها ما لا يقلُّ عن مائة ميـلٍ تقريبًا، حتى اقتربنا من السّاحلِ الأمريكىّ، فحدث ـ من حُسن الحظِّ ـ أن انقطع الهلبُ

فَراحت السفينةُ من شـدّة الدوران تندفع إلى مَصبِّ نهْرِ «لورانس» . فانتهزنا الفرصةَ لإصلاح العطبِ الذى أصابَ السّفينةَ ، ولما عُدنا فى طريقنا إلى المكان الذى وقعت فيه الصدمةُ وجدنا حوتًا ميّتًا يطفو على وجه الماء ، بلغَ طولُه ما لا يقلُّ عن نصفِ ميلٍ. وكان من الطبيعى أن يستحيلَ علينا أن نرفعَ هـذا الماردَ إلى ظهرِ السفينةِ ، فاكتفينا بتحطيم رأسِهِ الضخم بعدَ مجهودٍ كبيرٍ ، فما كان أشدَّ سرورَنا عندما ألفينا فى داخلهِ ذلك الهلْبَ المفقودَ ، كما وقعت أيدينا على سِلسلةٍ حَديديّةٍ طولها أربعون قصَـبةً فى حُفرةِ سِنٍّ من أسنانه اليسرى مصابةً بالتسويس . وإنى أكتفِى بهذا القدرِ من ذكر الغرائبِ التى صادفتُها فى تلك الرحلة .

. . .

وأثناء رحلةٍ لى فى البحرِ الأبيض المتوسط تعرضْتُ لخطرٍ لا شك فيه . ففى عَصر يوم من أيام الصّيف كُنْتُ أستحِمُّ على الشّاطىء قريبًا من ميناء مَرْسِيلِيا وكان الجوُّ بديعًا والماء دافئًا ، ولكنّنى لم يطل بى الاستحمامُ حتى ألفيتُ أمامى سمكةً هائلةً تندفِعُ نحوى بسرعةٍ عظيمـةٍ وهى فاغرةُ الفم .



وكان من الطبيعيّ أن أُفكّرَ في طريقةٍ أخرى غيرِ الهرَب ؛ لأنه من المستحيلِ أَن يُسابق أحدٌ كائنًا من كَان الأسماكَ في السّباحة ؛ لهذا لم يكن لديّ إلا أن أَجمعَ جِسمِي إلى أقلِّ حجمٍ مُمكنٍ ؛ فجذبتُ ساقيَّ إلى بطني ، وضَممتُ ذِراعيَّ إلى صدري ، وبذلك تحاشيتُ ما قد أُصابُ به إذا ما انزلقتُ إلى فم السمكة المفتوح وارتطمتُ بأسنانها الشوكية وأنا مندفعٌ بقوة إلى جوفها، وقد حدثَ ذلك بالفعل. فلمّا استقرَّ بي المُقام في جَوفِ السّمكةِ وجدت نَفسي في شِبهِ غُرفةٍ مُغلقةٍ دامسةِ الظلام ، وكانت الحرارةُ فيها لا تُطاق .

ولاشكّ في أنّي كنتُ ضيفاً ثقيلاً على هذهِ السّمكةِ، إذ أنها حاولتْ ما استطاعَتْ أن تتخلّص مِني دُون فائدة ؛ وكانت كلّما تتلوّى من الألم

كنتُ أَعملُ على زيادة مُضايقتها ؛ فكنتُ أثبُ وأتأرجحُ وارقصُ ، وكان كل ذلك يزيدُ من متاعِبها . ولمّا لم تستطع السمكةُ احتمالا سَبحَتْ إلى وجهِ الماءِ فبدا نصفُها يلمع تحتَ أشعّة الشمس ، وسُرعان ما تنبَّه لها جماعةٌ من الصَّيادين الإيطاليينَ . فأحاطتْ بها سفينتُهم وأهوَوْا عليها بالخطاطيفِ فقضَوْا عليها في بِضع دقائقَ . وقدعرفتُ من حركاتها التشنُّجيَّة التي تقوم بها أنَّها كانت في صِراع مميتٍ . فلما سكنت حركاتُها وثقتُ من أَنها فارقتِ الحياةَ .

أسرعَ الملَّاحونَ وحملوا السَّمكةَ إلى ظهر سفينتهم وأخذوا يتشاورُون عن الطريقةِ المُثلى لشقّ بطنها بحيث لا يَضيعُ من زَيتها شيءٌ ، ولما كنتُ أعرفُ اللغةَ الإيطاليةَ أَصابني الهلعُ خوفًا من أن تخطئَ سكاكينهم فتُصيبني بسوءٍ وأنا في جَوف السَّمكة ، فانبَطحْتُ على بطني ، وامتنعتُ عن الحركة ، وإِن كان قلبي دائمَ الخفقان . وكان من حُسن حظِّي أنهم بَدَأُوا عمليتَهم الجراحيةَ هذهِ من ظهر السَّمكةِ ، فما إِن شقُّوا جدار البطن فوْق رأسي ونفَذَ ضوءُ الشمس إلى مكاني حتى هزّني السرورُ فرُحتُ أغنّي وأنشدُ بعض الأغاني الإيطاليةِ التي كنْت أَعرفُها.

فلمّا سَمِعَ الملّاحونَ هذه الأصواتَ منبعثةً من جَوفِ السَّمكةِ

أخذوا يَصيحون ويَصخَبون من الفزعِ ، وفى أثناء ذلك كنتُ أشُقُّ طريقى إلى الهواء ، وما إن رأى أولئكَ الملّاحون آدميًّا يخرُجُ بينهم حيًّا من جَوفِ السّمكة وهو يرتدى ملابِسَ عجيبةً حتى ازدادَ صياحُهم واشتدَّ فَزَعُهم .

وبعد أن هدأَتْ دهشَةُ هؤلاء الصَّيادين قدّموا إلىَّ بعض الطعام والشرابِ ورحتُ أقصُّ عليهم حكايتى من أولها ، وبعد أن شكرتُهم على نخوتهم وضِيافتهم وثبْتُ إلى المـــاءِ عائداً إلى الشاطىء لأبحثَ عن ملابسى التى خلّفتها هناكَ فألفيتُها كما هى ؛ ولما نظرتُ إلى ساعتى وجدت أنى قضيتُ نحواً من ثلاث ساعاتٍ حبيسًا فى جوف السّمكة ؛ وإنه لوقتٌ طويلٌ أيها الأصدقاء! إذا تذكرنا المكانَ الذى كنتُ أقيم فيه، والهواء الفاسدَ الذى كنتُ أتنفسهُ !

الليلة التاسعة

أصدقائى الأعزّاء ورفاق الصيّادين :

بعد أن قصصت عليكم أخبار مُغامراتى فى البحر فى ليلتى السابقة بَقِى علىّ أن أصِفَ لكم كيفَ قفلتُ راجعاً من إيطاليا إلى ڤِينّا ، وكيفَ سافرتُ من هذه المدينة إلى القُسْطَنْطينيَّة فى مُهِمَّةٍ دبلوماسيَّة لمقابلة السُّلطان، لهذا أعتذِرُ إليكم إذا قصَّرت عن ذكر ماجرى إبَّان تلك الرحلةِ وإن كنتُ أرجو أن أعودَ إلى تفتيق أسرارها فيما بعدُ .

ولو أنَّ حوادثَ هذه المُهِمَّة قد مَضى عليها وقتٌ طويلٌ ، بَيْدَ أنه ما زال على قيد الحياة كثيرون ممَّن اتَّصلوا بها ، وليس من اللِّياقة فى شىء أن أعرضَ لهذه الحوادثِ التى تتَّصلُ بأسماء شخصيَّاتٍ كبيرة خطيرة الشَّأنِ .

وأكتفى بأن أذكرَ لكم فى هذه اللّيْلة ، أننى أُرسِلتُ من بعض المقامات العُلْيا كمُمَثِّل دبلوماسى للقيام بمفاوضات مع السُّلطان ، وقد حملتُ أوراقَ اعتمادٍ رسميةً تُرخِّصُ لى القيامَ بهذه المُهِمَّة .

لهذا سافرتُ من ڤيَنّا حتى إذا ما وصلتُ إلى القُسْطَنْطينيّة قُوبلْتُ بحفاوةٍ بالغةٍ واستُقْبِلْتُ استقبالاً رائعاً . وقد تمكنتُ بمساعدة سُفَراء رُوما ورُوسيا

القَيْصرية وفرنسا فى القُسْطَنْطينيّة من أن يكون تقديمى إلى عَظمةِ السُّلطانِ فى استقبالٍ رسميّ . وقد سلَّمْتُ أوراق اعتمادِى الرَّسميَّةَ إلى المترجمِ الّذى كان من الضَّرورى أن يقدِّمها إلى الصَّدر الأعظمِ ، وهو الّذى يرفعُها إلى الجنابِ العالى . وكم كانت دهشةُ ذلك الحفلِ الحاشدِ من السُّفراء والسَّاسةِ والعُظماء ورجال القصرِ ، عند ما قطعَ السُّلطانُ على المترجِم خُطبةَ التَّرحيبِ ، ووقفَ مادًّا ذِراعيْهِ إلىَّ وهو يقولُ :



— مونشهاوزن أهو أنت أيها الرَّجل الجسور؟ إننا أصدقاء خلصاء ومعارفُ منذ زمن طويل لا نحتاج إلى خُطبةِ المترجِم لِكى نتعارَف ، أهْلًا بك أيُّها الرجلُ الفتى ومرحَبًا بقدومك !

وليس غريبًا أن تُحدِثَ هـذه المفاجأةُ أثرها بين سُفراء الدُّول لاسيَّما كبيرُهم (دُوايان) ، إذ كان من نتائج ذلك أن احتللتُ المقام الأوَّلَ فى البَلاطِ السُّلطانى . وأصبحتْ صِلَتِى بجَلالة السُّلْطان تختلفُ عن صِلَتِى به عنـد ما

كنت أسيرَ حربٍ فى اسطنبول منذُ بضعِ سنين حين وُكِلَ إلىَّ إذ ذاكَ أمرُ تربيةِ النّخْل فى الحدائق السُّلطانية .

. . .

حدثَ فى الأيّامِ الأخيرةِ أن فترتْ العَلاقات بيْنَ مِصر وتركيا ، وشكا لى السُّلطانُ ذاتَ يومٍ ماأصاب نفسَهُ من كمدٍ بسبب ذلك ، وكيفَ أنه لا يَعْرِفُ متى وكيفَ يتسنّى له أن يَحُلَّ هذه المشكلةَ ، ويُقرِّبَ مابينَ أطرافِ النِّزاع بينهما .

ومِنَ الجائز أنه قد ارتسَمَتْ على وَجْهى نظرةٌ خاصّةٌ عند ما سَمِعْتُ كلامَ السُّلطان ، لأنه عقَّب علىَّ ـ وهو يبتسم بخبثٍ قائلا :

ــ « أتحاولُ أن تبْدُو شديدَ الحِرص ياموتشهاوزن؟ بينما أنتَ تريدُ فى الحقيقةِ أن تسألَ : ولأى سببٍ جئتُ إلى هذا المكان؟ أليس هذا ما تَعنيه ؟ أليسَ كذلك ؟

فما كان مِنِّى إلّا أن هززتُ كتِفِى مُوافقَةً ، عند ذلك عاوَدَ السُّلطانُ الكلام:

ــ حسناً حسناً ياصديقى العزيز ! فأنا عليمٌ بكل ما هنالك ، ولـكنَّ هذه حالةٌ خاصةٌ تحتاج إلى وسائلَ خاصةٍ كذلك . انظُر إلى هذه الدّرجات إنَّ عِدَّتها ثلاثُمائة وخمسٌ وستون درجةً ، وإنها تنتهى إلى طابق لا تُرهَفُ فيه الآذان لسماع ما يدور فيه ، فأَسْرِعْ وأَلْحِقْ بِى فإننى سأُفضى إليكَ بسرٍّ عميق ، ألا فأسرع !

وما ان أتمَّ كلامَهُ حتّى وثبتُ على قَدَمىَّ وارْتقيْتُ الدرجاتِ حتّى

وصلتُ إلى قمّتها فى شىء من الجهد ، وهُناكَ طفِقتُ أنتظرُ السُّلطانَ الذى لحِق بى متهالكاً بعدقليل وهو يُهَرول بجسمه المتكدّس .

ولم يَطُلْ بى المُقامُ ، ولو أن السُّلطان قضى نصفَ ساعة كاملًا وهو يتعسّر فى تنفُّسه ، ولم يكنْ ليَستطيعَ أن يفتَح فَمَهُ إلّا ليقولَ لى « صبراً ! صبراً ! » . وما كنتُ قليل الصبرِ ، ولكننى فى خلال ذلك كنتُ أنظر مليًّا إلى هذا الوجهِ المنفَعِل ..

وأظنُّكم راغِبين فى أن تعرِفوا ما إذا كان السُّلطانُ قد أفضى إلىّ فى النهاية بهذا السرّ ؟

ويمكنُنى أن أقول إن هذا حصلَ بالفعلِ ، وإننى شديدُ الأسف إذْ يتعذّرُ علىّ أن أكرّر لكم ما دار بينى وبيْنَ السُّلطان . لأنكم تعلمون تمامَ العلْم أن هُنالكَ من الأسرار الدوليّة ما إذا أُفشِىَ خبيئُها كان سبباً فى إشعال نار حرب أوربيّةٍ لا محاولة .

ومع ذلك فاننى أؤكّد لكم أن هذا السِّرّ ممّا يدعو إلى رفع الرأس عاليا ، وفضلاً عن ذلك فإنّ السُّلطانَ قد أقسم لى على القرآن وبشرفِ النّبىّ الكريم على أن يجعلَ أمرَ هذه المُهمّة سرًّا مكتومًا وإنه لن يبوحَ بكلمةٍ لكائنٍ من كان ولن يذكُرَ شيئًا عن الغايةِ من هذه المهمّة التى أوفدنى بها إلى القاهرة ، لذلك وجدتُ نفسى مُلزَمًا لأن أُقسِم بشرفى كنبيل ألمانىّ على أنْ أحتَفِظَ بهذا السِّر، وقد وعدتُ السُّلطانَ بذلك .

وكُلّ ما أقوله لكم هُو أنَّ مُهمّتي هذه صادفتْ نجاحًا وارتياحًا عندَ السلطانِ ، والدليلُ على ذٰلك أنَّه رأى بعد ذٰلك بقليل أن يُكلّفني بمهمّةٍ مُشابهةٍ ، فأرسلني مندوبا من قِبَله إلى شاهِ إيرانَ . وهذا ماسأقُصُّ عليكم خبرَه فيما بعد.

...

في اللّيْلة الّتي أزمَعتُ فيها السّفرَ إلى القاهرةِ قضيْتُ ، المساءَ في جَوْشَن في حدائق القصر يُطلّ على البحر ، وأخذنا بأطراف الحديثِ ، وتدارسنا ما يجبُ وما يجوزُ أن أقومَ به إذا ما وصلتُ إلى نائب السُّلطان في مصر ، وأنتقل بنا الحديثُ إلى الكلام على مُغامراتي السّابقةِ في الجيش البروسيّ فقصصتُ على مسامعِ السُّلطانِ إحْدى هٰذه المُغامراتِ إبّانَ حِصارِ مدينة حصينة لا أذكُرُ عنها الآن شيئًا كثيراً .

وأنتم تذكرون يا أصدقائي ورفاقي الأعزّاء ما قصصتُهُ عليكم في جَلساتِنا السالفةِ من طرائف هذه المُغامَراتِ ، ومع أنَّ ما رويته للسلطان لا أُعتبرُه إلّا تافهًا بالمقارنة إلى مُغامراتي الأخرى ، ولكن السُّلطان وجد هٰذه الحكايةَ جديرةً بأن تُقصّ على الأسماعِ ، لهذا رأيتُ من المناسب أن أُعيدَ ذكرَها عليكم .

...

حدَثَ مرّةً أن كُنّا نُحاصِرُ مدينةً صغيرةً لا أذكر مكانَها ، وكان قائدُنا تَعْوزُه أخبارُ مايجري وراء حِيطان هذه المدينةِ المحصّنة ، ولم تكن هناك وسيلةٌ

من الوسائلِ التّى يمكنُ بها إرسالُ جاسوسٍ خُفيةً إلى الحصن مع ضمان النجاح فى مُهمّته ؛ وبينا أخذت أُفكر فى الصّعاب والمخاطرِ التى يتعرّض لها من تُسوّلُ له نفسُه أن يتسرّبَ إلى خُطوط الأعداء ومخافرهِمْ وتحصيناتِهم المنيعةِ ، إذا بخاطر يتملّكُنى ويجعلنى أُفكّرُ فى وسيلةٍ أُخْرى لتحقيق هذه الغاية .

ودون أن أُفضِى إلى أحد بما عزمتُ عليْه وثَبْتُ على قدَمىَّ واندفعْتُ إلى أحد المدافعِ الكبيرة المصوَّبةِ نحو الحِصن ، وأَعطيْتُ أمراً بإطلاقِ النَّارِ من هذا المدفعِ فى دقيقةٍ مُعيَّنة ، فوقف المِدفَعىُّ يحملُ مِشعلَه ينتظرُ الوقت المحدَّد



لإشعال البارود، وما إن انطلقتِ القنبلةُ حتّى وثبتُ فى الفضاء وتعلّقتُ بها حاملةً إياى فى طريقِها إلى الهدَف.

وبينما كُنتُ فى طَريقٍ مُعلّقاً فى الفضاء مرّتْ بذهنى خواطرُ مُتلاحقةٌ فقلْتُ لنفْسِى: قد تصِلُ سالماً إلى الحِصنِ، ولـٰكنْ كيف لك أن تعود من حيثُ أتيْتَ فتخرجَ من هذا الحِصن دون أنْ يتنبّه إليْكَ أحدٌ، فرغبتُك المُلِحّةُ لتقوم بواجبكَ العسكرىّ لم تسمحْ لك بخلْع هـذا الزىّ الّذى يَفْضَحُكَ إذا وصلْتَ إلى الحِصن، ولَيْس مِن شك فى أنه سيُقْبَض عليْكَ وتلْقَى حَتْفكَ على أقربِ مِشنقةٍ! ولـٰكنَّ هـذا لَنْ يكون!، ومتى كان آلُ مونشهاوْزِن يختِمون حياتهم على هذا النّحو؟

عند ذٰلك طَرأتْ علىَّ فـكرةٌ جديدةٌ، فقرّرت فى التّوّ أن أثِبَ على أوّلِ قُنبُلةٍ طائرةٍ من الحصن لِأَعُود بها من حيثُ أتيتُ كما لو كانت عربةٌ فى انتظارى، وما هى لحظةٌ حتّى لمحتُ قريبًا منّى إحدى هذه القنابل المسدّدة مِن الحِصن، فانتهزتُ الفرصة ووثبتُ مِنْ قُنبلتى إلى قنبُلةِ العَدُوّ وتعلّقْتُ بها.

وهكذا عُدْت ثانية إلى المعسكَرِ دونَ أن أُنجزَ المُهِمّةَ إذ ذاك، ولـٰكنّنى لم أتورّعْ عن تـكرار التّجربة بعد ذٰلك.

فما إنْ سَمِع السلطانُ ذٰلك حتّى انفجرَ من الضّحك وقال ـ وهو يقبِضُ على بطنه مِنْ شِدّةِ ضحكه ـ: «نعم نعم يا منشهاوْزِن إنّ ذٰلِكَ جائزٌ ومعقولٌ جدا

ولكنَّ المُهمّةِ كانت ـ ولا شك ـ جسيمةً » .

فأجبتُه : « حقًّا أنها كانت مُهمّةً جدًّ خطيرةٍ يا صاحبَ الجلالةِ ، ولكنّني أحمد اللهَ الّذى نجّانى من مصيبة واقعةٍ ؛ لأنَّ القنابل ـ كما هو معروف ـ ملساء وكان من الصّعْب أن يُحافظ الإنسانُ على توازنه فوقَها ، وكان من الأصْوبِ أن يقومَ بهٰذه المُهمّةِ رجُلٌ أنضرُ شباباً »

. . .

وفى اليوْمِ الثّانى ، وبينَ مظاهر التّكريم الباهرة كسفير من السُّفراء بارحتُ القُسْطَنْطينيّةَ وفى رِكابى حاشيةٌ كبيرةٌ كما يتطلّبُ ذلك مَركزى الخطيرُ . وتفضّلَ السُّلطانُ فصحِبنى حتّى ساحلِ البحر ، وبينما هو يمسكنى بكلْتا يدَيْه مُوَدّعًا همسَ فى أُذُنى قائِلاً : « أرْجوكَ يا مونشهاوْزِن أن تقلعَ عن مُغامراتك الجنونيّة ، فأنْتَ تعْلَمُ نوْعَ المُهمّةِ المُلْقاةِ على كتِفك » .

ولم أُجِبْ على كلام السُّلطان بأكثرَ مِنْ أن أعقِدَ ذِراعى على صدْرِى ، وأن أنحنِيَ صامِتًا دون أن أتكلّم . وقد فهِمَ السُّلطانُ ما أعنيهِ بانحنائى وسكوتى ، فتبِعَنا بعينِهِ حتّى حَملتنا القواربُ إلى الشّاطئِ الأسيوى أمام اسطنبول، ومِن ثَم بدأنا رِحْلتنا الطّويلَةَ إلى القاهرة على ظهور الجمال .

. . .

كانتْ حاشيَتِى كبيرةَ العددِ ومع ذلك فإنّنى لم أتَرَدّدْ فى أن أضيفَ إليهم

عدداً آخر التقيتُ بهم فى الطّريق ممّنْ كنتُ فى حاجةٍ إلى خدماتهمْ .

كم من مرّة طوّفتُ فيها بأوربا وقطعتُ مئاتِ الأميالِ ولم يحدُثْ مُطلقا أثناءِ رحلاتى تلكَ أن قابلتُ من مُختلف النّاس مثْلَ ما قابلْتُ فى خِلالِ هٰـذه الأيّامِ القليلة وأنا فى طريقى إلى القاهرة . وأُريدُ أن أؤكّدَ بهذه المناسبة أنّ مَن يرغبُ فى أن يرى عجائبَ الحياةِ فليسَ لهُ إلّا أنْ يُسافرَ إلى قارّةٍ أُخرى .

. . .

لم يَطُلْ بنا السَّيرُ بعيداً عن اسطنبول حتّى رأيتُ على قارعةِ الطّريق رجلًا فى متوسِّط العمرِ باديةً عليـه علاماتُ الصِّحّة وهو يجرى بسُرْعةٍ فاقتْ سرعةَ القافلةِ ، والعجيبُ فى ذلك أنّ كل قدم من قدَميْه كانت مُقيَّدةً بحِلْقٍ ثقيلة من الحديدِ يبلغُ وزنُها بضع أرطال .

فناديتُهُ وقلْتُ له : « إلى أينَ أيُّها الأخُ ؟ وما بالُكَ مُسرعًا ، وما بِكَ حتّى قَسَوْتَ على نَفسِك بهذه الأثقالِ التى تُعْجزُ الإنسانَ عن الحركة ؟

فأجابنى الرّجلُ : « إننى نشأتُ فى أُسرة من العدّائين المشهورين بالسُّرعة لهذا أشاع عنّا النّاسُ أنّ أجسامنا خاليةٌ من الطِّحال ، ولـكنْ كلُّ ما أقولُهُ هو أنّ أحداً منّا لم أَسمَعْه يتشكى بالسويداء كغيرِه من الناسِ . أمّا سرُّ هـذا الثِّقْل المعقودِ حَوْل ساقَىَّ فذلك لـكى أحِدَّ من قُدْرتى على سُرْعةِ العدْوِ ؛ فمنذُ ساعتَيْنِ اثنتَيْنِ خرجْتُ من بلادِ المغْرِبِ حيثُ أَعملُ عدّاءً فى خِدْمة دَاىِ الجزائرِ ،

وفى هذا الصَّباح كلَّفنِى سُمُوُّهُ برِحلةٍ طويلةٍ على أن أعودَ إليهِ بالخبرِ فى الظُّهرِ، ولما كنتُ مُجهداً لم أَستطِعْ أن أَصِلَ إلى القصرِ فى الظُّهرِ كما أمرَنِى فلم يكنْ مِنْ سُمُوِّه إلا



أن طردنى من خِدمته ، وها أنتَ ترانِى أضربُ فى الأرضِ على غيرِ هُدًى وليس مَعى من زادٍ إلّا كِسرةَ خُبزٍ فى يَدى وتفّاحتيْنِ فى جيبى ، وقد علّقتُ هذينِ الثقلين حولَ ساقىَّ حتَّى أتمهّل فى سيْرى ، لأنّى لا أرغبُ فى أن أذهبَ

أبعدَ من القُسطنطينيّة التي سوْفَ أصِلُ إليها في أقلّ من نِصفِ ساعة ، وهُناكَ سأبحثُ عن عملٍ جَديدٍ » .

ولم يكُنْ في هـذا الرجُل ما يُنفِّرُني منه لذلك سألتُهُ عمَّا إذا كان يرغَبُ في أن يَدْخُلَ في خِدمتي . وقد تملَّكَني السُّرُورُ عند ما قبلَ ، فخَصَّصْتُ لهُ جملًا لركوبه ، وما أسْرعَ أن أصْبَحَ واحِداً مِنَّا . ولـكنَّه كان من وقتٍ لآخَرَ ينزِلُ عن جملِهِ ويعدو أمام القافلة مَسافةَ بِضعةِ أميالٍ ويعودُ قافِلاً كالْبَرْقِ . وكانتْ غايتُهُ من ذلك أن يحتفِظَ بِمرانتِهِ وقُدْرته على العدوِ السريعِ .

. . .

كان هذا أيُّها السّادةُ أوّلَ من انضمّ إلى القافلة ، وقبْلَ أن ينصرِمَ هذا اليوْمُ نفسه صادفتُ في الطريق رجلَيْن ليْسا أقلّ غرابةً من صاحبنا هذا .

أمّا أحدُهُما فقد مَررْنا بِهِ راقِدًا على قارعَةِ الطريق وكان طريقاً مُنحدِراً قد غطّتْه الحشائشُ ، فظننّا في بادئ الأمر أنّه نائمٌ ، ولـكنّا عند ما اقتربْنا منه وَجدناه مَفتوحَ العينيْن تشيعُ في وجْهِهِ البهجَةُ كأنّه يُرَوّحُ عن نفسه أو يَتَسلَّى بِمفرَدِهِ .

فسألتُهُ : إلى ماذَا أنتَ مُنْصتٌ يا صَديقي ؟

فأجابني : إنّني أُسَلِّي نَفْسي بِمُرَاقبةِ هـذهِ الحشائشِ لأعْرِفَ كيْفَ تنمو ؛ وذلك بأن أسْترق السّمعَ وأُنصِتَ إليها أثناء نموِهَا .

— أَصِدْقاً ما تقول ؟ أَوَ مُمكِنٌ ذلك ؟

— إنّى لا أَهزِلُ يا سيِّدى . بل إنّى قادرٌ على أن أسترقَ السّمعَ إلى أشياءَ أُخرى غيرِ الحشائشِ وطريقةِ نُمُوِّها .

فأجبْتُ : إنى فى حاجةٍ إِليْكَ يا صديقى ، تعالَ وانضَمّ إلى جماعَتِنا أَيُّها الرّجُل الذى يَقدِرُ أن يُرْهِفَ السّمعَ على هذا النَّحوِ .

وما أسرعَ أن وثبَ « مُسترقُ السمعِ » هذا وانضَمّ إلينا . فهذا هو ثانى الرجلَيْن .

...

وبعد سَاعةٍ صادفْنا فى طريقنا صيَّاداً يحمِلُ بُندُقيَّةً ، وبعدَ أنْ أمعنَ النَّظرَ فى الفضاء الفسيحِ أطْلقَهَا دُونَ أن يلمعَ أمامنا الهدفُ الّذى أراد أن يُصيبَهُ ، ثم إنه بعدَ ذلك وقفَ على أطرافِ أصابعه وأَخَذَ يُحَمْلِقُ وكأنه يحاولُ أنْ يُدقِّقَ النَّظر فى شيْءٍ من الأشياء .

فصحتُ فى وجْهِه : أَيُّهَا الرجلُ ، إنى لا أَرى إلا الفضاءَ الفسيحَ ، فأَىُّ هدفٍ هذا الذى صوّبْتَ إليهِ بُندقيتَكَ لأنى لا أَراه .

فأجابنى : إنى أُجرِّب هذه البندقيّةَ الجديدةَ ، فهنالِكَ على قِمّةِ الكَنيسةِ فى مَدينةِ « اشْتَراسْبُرج » عُصفورٌ وقد تمكّنْتُ بالفعل من إصابته ! يا لها من بندقيّةٍ جميلةٍ !

وإذ كنتُ صيَّاداً بارعا فقد أثارَ إعجابى وتقديرى هذا الرَّجلُ الّذى يُصيب الهدفَ إلى هـذا المدى ، لهذا لم يكنْ بدٌّ من أن أسمح له بالدُّخول فى خدمتنا ، لأنَّ هذه البراعة كثيراً ما أكونُ فى حاجةٍ إليها . وهذا هو رفيقُنا الثالث .

. . .

وكنَّا فى كل مساء إذا حلّ اللَّيْل نزَلنا فى بعض الخانات للمَبيت ، وكان صديقُنا الصيّادُ هذا يقضى ساعةً أو ساعتيْنِ وهو يقُصّ علينا من طرائف مُغامراته فى الصَّيد والقنَص .

وحدَثَ مرّةً بعد ذلك ـ وقد وصَلْنا إلى جَبل لُبْنان ـ أن شاهدْنا رجُلًا بدينًا مفتولَ العضَل يحمِلُ حبلاً طويلاً يريد به أن يطوِّق حرشًا من أحراش شجر الأرْز، فدفَعنِى حُبّ الاستِطلاع إلى أن أقِف وأسألَه حقيقةَ أمرِه .

ــ ماذا تَبْغِى يا صديقى بعمَلك هذا ؟

فأجابَنِى : إنّنى جئتُ لجمعِ شىء من الحطَبِ ولـكنَّنى مع الأسف نسيت فأسى فى البيْتِ فلم يكنْ بدٌّ من أن أتحايَل على ذلك بوسيلةٍ أُخرى وقد نجحتُ بالفعلِ ، فها أنتم ترَوْن أنّنى قدْ طوّقتُ أشجارَ هـذه الغابة بالحبل . . ولـكنْ أرجو معذرةً فإنّ الأشجارَ قد أوْشكتْ على السّقوطِ ، فعليكُم أن تبْتَعدوا قليلاً .

وما إنِ انتهى من كلامِهِ حتّى سحب الحبل سحبةً عنيفةً وما هي إلَّالحظةٌ

حتى أنهارت الأشجارُ وكانتْ تُغطى ميلًا مربعاً من الأرض ، لقد رأيتُها تتساقطُ أمامَ عيْنِي وكأنَّها البوصةُ الناشفةُ ! .



وليْسَ لى أن أذكرَ لكم ما حدَثَ بعدَ ذلك ، فكُلُّ ما هُنالك أنّى لم أرِدْ أنْ أُضيِّعَ هذه الفرصةَ وأتْركَ هذا الرجُلَ العجيبَ يسيرُ فى حال سبيلِهِ ، بل ضمَمْتُه إلى جماعتِي بعد أن منحتُه أجراً باهظاً ، هذا هو رَفيقُنا الرابعُ .

. . .

قضَيْنا بعدَ ذلك أُسبوعاً فى الطَّريقِ حتى عَبَرْنا الحدودَ المِصريَّة وهناك صادفتْنا ريحٌ عاتيةٌ كَادتْ مِنْ شِدَّتها أن تحمِلَنا فى الهواءِ .

وبينما نحنُ كذلك إذْ رأَيْنا على جانب الطَّريق سبعَ طواحين هوائيَّةً كانت أجْنحَتُها تَدورُ بِسُرعةٍ عجيبةٍ كأنها طارةُ مغزل سريعٍ ، وإلى جانبِ هذهِ الطواحين وقعَ نظرُنا على رجل عظيم الجثَّة وقد سدَّ فتْحةَ أنْفِهِ اليُمنى بسبَّابته ...

وما كادَ الرَّجُل يَرانا ويرى صراعَنا مع العاصفةِ حتى دار دورَةً ووقفَ قُبالتنا ثمَّ انحنى قليلاً ورفَعَ عِمامَتَه . وما كادَ يفعلُ ذلك حتى هدأَتِ العاصفةُ ووقفَ دورانُ أجنحةِ الطَّواحين !

فصحتُ من العَجب : ما حِكايتُك أيُّها الرَّجُل ؟ أيسكُنُ فيك شيطانٌ ؟ أم أنتَ الشَّيطانُ نفسهُ !

ـــ معْذِرَةً يا صاحِبَ السَّعادةِ، إنني كما تَرى أعْمَلُ طحّاناً ، فإذا كانت الريحُ ساكِنةً لاتكْفِي لتسييرِ هذه الطّواحينِ فما علىّ إلّا أن أسُدّ إحْدى فَتْحَتَيْ أنفى !

فسألتُه كم يَمنَحُهُ سيِّدُه من أجرٍ على هذا العَمَل العظيمِ ؟ فلمّا ذكر لى مقدارَه ـ وكان طفيفاً ـ عرضتُ عليهِ أن أمنَحهُ عشرة أضعافه، وبذلك تيسّر لى أنْ أضُمَّه إلى بِطانتى ، وهذا هو رفيقُنا الخامسُ .

وهكذا سِرْنا فى طريقنا إلى القاهرةِ حيثُ قضيْنا أربعةَ أسابيعَ أنجزْتُ فى خلالها المهِمّة التى جئْتُ من أجلِها ونجحْتُ نجاحًا عظيماً أكثرَ ممّا كانَ يتوقّعَهُ السُّلطان . وقد كان لذلكَ أثرُهُ فى علاقاتِ السُّلطانِ بما نَدْعوهُ الدُّوَلَ العُظْمى، ولكنْ يُؤْسِفُنِي أنْ أمْتَنِعَ من ذِكرِ شيء من هذا لأنّه سرٌّ من الأسرارِ ، ولما انتهتْ مُهمّتى أرسلْتُ بِطانتى جميعَها إلى اسطنبول بخطابٍ مِنّى إلى السُّلطان ولم أستَثْنِ سِوى خادِمِى الخامسِ ، إذْ رغِبْتُ فى أنْ يَصحبَنِى فى رحلةٍ على النِّيلِ أقوم بها لا كسَفيرٍ سياسيٍّ بل كرَجُلٍ عادِيّ .

الليلة العاشرة

عقدتُ العزمَ وأنا في القاهرة على أنْ أقومَ برحلة على النّيل ؛ وقد ذكرتُ لكم خبرها في اللّيْلة السّابقة ، وكل ما يُمكنني أَن أُضيفَه الى ذلك هو أنّ أحدَ معارفي حَذّرني من القِيام بهذه الرّحلةِ ، إذ أنّ فيضانَ النّيل شديدُ الخطورة ، ومع ذلك لم أعبَأْ بهذا التّحذيرِ بل استأجرْتُ مَركبًا شِراعيًّا وجماعةً مِنَ الملّاحين والخدمِ ، ووسقْتُ المركب بما نحتاج إليه من طعامٍ يكفينا مُدّةً طويلةً .

بدأتُ رحْلتي النّيليّةَ وكان كلُّ شيء يُبشّرُ بنُزهة جميلةٍ، ولكنّ ذلك لم يستمِرّ طويلاً . فلمّا انقضى اليوْمُ الرابعُ أو الخامسُ لاحظْتُ أنّ ماءَ النّيل أصبحَ أحمرَ اللّوْن وأخذ يَطغَى على شاطِئَيْه فلمّا أصبح الصّباحُ بدأ الماء يَفيضُ ويندفعُ بسُرْعةٍ شديدةٍ ، وما إنْ أمْسَى المساءُ حتى امتدَّتْ مياهُ الفيضانِ شرقًا وغربًا وطَغَتْ على الحقولِ والوِدْيانِ فغمرَتْ مئاتِ الأميالِ من الأَرض ، وبعدَ ساعة من ذلك شَعَرْنا بأن المركبَ قد تعثّر بشيءٍ من الأشياء ، ولما كان الظلامُ ضاربًا أطنابه لم نتحقّق ماهية هذا الشيء الذي لايَعْدُو أَن يكونَ عَريشةً من الحشائش ، ولم نُرِدْ أن نتبيّنَ حقيقة الأمر حتى يُصبحَ الصّباحُ .

ولما كانَ اليوْمُ التّالي وجدْنا أن ما تعثّر به المركب ليس إلا كومةً من اللوز انْغرسَ فيها مقدّمُ المركب فعاقه عن كلّ حركةٍ وكان ذلك من

حُسْن الحظّ ، وبعد قليل هبّتْ ريحٌ عاصفةٌ فدفعت المركبَ إلى جنْبِه فمالَ وغرِفَ الماءَ الذى غمر ما كُنّا نحمِلُ من طعام. ولـكنّ الحظّ كان مُواتينا لأنّنا على الأقلّ استعَضْنا بما وجدناه من اللّوْز عما فقدناهُ من الطعام فعِشْنا جميعًا (إذ كنّا ثمانيةَ رجالٍ وصبيّيْنِ) على هذا اللوزِ، واحتمينْا مِن شرّ الفيضان بفروعِ الأشجار ، فقضينْا على هذا النّحْو خمسةَ أسابيعَ ونصفًا حتى بَدَأَتْ مياهُ الفيضان فى الانخفاض.

وقد امتلأْنا فرحًا عنـد ما بَدَت الأرضُ من تحتِنا وقد غطّتْها الأوحالُ ، فنزَلْنا من الأشجارِ وصِرْنا نَتخبّطُ حتى وصلْنا إلى المركبِ الذى اكتسحتْهُ الأمواجُ إلى مسافةِ مائتَىْ قصبةٍ على الأقلّ من المكان الذى انقلَبَ فيه، ووجدْنا أنّ جانبًا مِن الزّادِ المخزونِ فيه ما زالَ صالحًا للأكْل، فكانَ طعمُهُ شهيًّا بعدتلك الأسابيع التى قضينْاها ونحنُ لا نطعمُ إلا اللوْزَ .

وكان علينْا أن نسيرَ على الأقدام مسافةً لاتقلّ عن مائة وسبعةٍ وثلاثينَ ميلًا حتى نصِلَ إلى مَجْرى النّهرِ الطبيعىّ الذى انحسَرتْ عنهُ المياهُ. وأشَقُّ مِنْ هذا أنه كانَ علينْا أَنْ نتخطى أسوارَ الحدائقِ والبساتين التى كانت تعترِضُنا والتى كانت من قبل مغْمورَةً بالماءِ. وعند ما وصلْنا إلى النهْرِ تفضّل علينا أحدُ البكوات وأعارَنا مَركبًا آخرَ حملَنا إلى الإسكندرية فوصلْنا هـذه المدينةَ بعد سبعةِ أيامٍ، ومن هناك أبحرنا إلى «اسْطَنبول» .

وكانت المتاعِبُ التى صادفها أُولئك الرِّجالُ الّذين صَحِبونى فى هـذهِ الرِّحلةِ لاتُحتمَل، فضلاً عن أنهم فقدوا مَرْكَبهُمْ مما جعل أيَّةَ مُكافأةٍ نقدية تُقدَّمُ إليهم لا تُساوى هذا المجهودَ،ولـكنهم مع ذلك كانوا جدَّ مغتبطين لأنهم قضَوْا سبعة أسابيع فى صحبة «مونشهاوْزِن» المشهورمعتصمينَ بفروع الأشجار، ولا يأكلون خلالَ ذلكَ إلَّا اللَّوْز . فمِنْ هـذا ترون يا أصدقائى الأعزّاء أنّ الرّجُلَ الذى يَحمِلُ اسمًا مشهوراً يجدُ مَنْ يُقدِّرُ عظمتَه فى أىِّ مكان يَنزِلُه .

...

وإنى لا أُريدُ أن أؤكِّدَ لكم ـ بعد أن نجحْتُ فى مُهِمَّتى الدبلوماسيَّةِ ووصلْتُ إلى نتائجَ رائعةِ ـ أنَّ السُّلطانَ جَعَلنى موضعَ تقديره أكثرَ من ذِى قبلُ . فإذاحدثَ وقابلَ أحَدُكم فى معرض «ليبْزِجْ» رجلاً تركيًا ، وسألَهُ عن البارون مونشهاوْزِن ، وكان هذا الرّجُل تركيًا حقيقةً فإنه سوْفَ يقُصُّ على سائلِه الشىءَ الـكثيرَ عن صداقتى للسُّلطان، وكيفَ أنه بعَثَنى إلى «اسطنبولَ» فى مُهِمَّةٍ جعلت اسمى معروفًا بيْنَ أنحاء تركيا .

وبعد قليلٍ أصبحَ جلالةُ السُّلطان لا يستغنى عنِّى ، فكان يدعونى إلى مائدته فى الظُّهر وفى المساء؛ ويحسُنُ بى أنْ أُقرِّر بهذه المناسبة أن مائدةَ السلطانِ التركىِّ تفوقُ موائِدَ الأمراءِ جميعًا بما تحويه من أشهى ألْوَانِ الطعامِ . ولا ينقُصُها إلَّا شىءٌ واحدٌ ، إذْ أن أتباعَ محمَّدٍ ـ كما تعلمون ـ حُرِّم عليهم شربُ النبيذ .

وحدث مرّة أنْ أسَرَّ إليّ السُّلطانُ قائلاً :

« لدىّ يا مونشهاوزن مفاجأةٌ طريفة لك ، فأنتم معشرَ المسيحيِّين تُقبلون على شرب النبيذ وتعرفون صُنوفَه وألوانَه . لهذا فإنى سأُهديك بزُجاجةٍ من نبيذِ توكاى المشهورِ الذى قد أهدانيه أحدُ أُمراءِ المجرِ . ولا أريد منك بعدَ أن تتذوّقهُ إلّا أن تُخبرنى عن نوعَه، إذ أننا معشرَ المسلمينَ لا يمسُ شفاهَنا شرابٌ مخمورٌ . »

فلما تذوّقتُ النبيذَ هززتُ رأسى موافقةً ، بيْدَ أن السّلطانَ أصرّ على أن أُصارِحَه بالحقيقة ، عند ذلك أجبته بقولى :



« يا صاحبَ الجلالةِ! لا أريدُ أن أقولَ إلّا ما أعتقد ، وأنا خبيرٌ بالنبيذ، فكم احتَسَيْتُ من دنان النَّبيذِ المُعَتَّقِ فى بلاط المرحوم الإمبراطورِ شارل السادس ، فإذا قارنتُ ذلكَ بهذا النبيذِ، فليس لىُ إلا أن اقرر يا صاحبَ الجلالة بأنه نَبيذٌ عاديٌّ غير معتّق ولو أنه من كروم توكاى نفسها . »

«ولو سمَحْتَ لى ياصاحبَ الجلالةِ بالمراهنة وذلك بطلبِ زجاجة من نبيذ توكاى المخزونة فى القصرِ الإمبراطُورى فى ڤينّا ليتضح الفرقُ بين هذه وتلكَ ، فسوْفَ لاتنقضى ساعة واحدةٌ إلا وتكون هذه الزجاجةُ بين يدى جلالتكم، ولا اقصدُ من ذلك إلّا إثبات رأيى.

فقال السّلطان :

« إنك تهزل ولا شكّ يا مونشهاوزن ! »

فأجبت : « إنى لا أهزل يامولاىَ ، وإنّى لأقدم رأسى ثمنًا لهذا الرّهان . فلا تنقضى ساعةٌ حتى أرفع إلى جلالتكم زُجاجةً من نبيذ توكاى أستقدمها فى التوّ من قصر الإمبراطورى فى ڤينّا . »

وافق السّلطان على الرّهان، فإذا لم يحضر النَّبيذُ فى الساعة الرّابعة تمامًا فإننى أفقدُ الرّهانَ ومَنْ ثَمّ أفقِدُ رأسى، وإن كان رأسَ صديقٍ للسّلطان! أما إذا كسبتُ الرّهان فإن خزائنَ السّلطان تُفتَحُ لى لأتخيّرَ منها ماأشاء من ذهبٍ ولآلىء وأحجارٍ كريمةٍ، أحمِلُ منها ما يستطيعُ أقوى الرّجالِ حملَه على كتفِه .

عند ذلك طَلَبْتُ قلماً وورقاً وحِبراً وكتبتُ رسالة إلى الإمبراطورة «ماريا تَرِيزا» أقول فيها :

«... لقد أصبحتِ يا صاحبَةَ الجلالةِ الوارثةَ الشرعيةَ لأبيكِ العظيم، كما أصبحْتِ وارثةَ نبيذِ أبيكِ المعتَّق. فهل لى أن أرجُوَ من جلالتكِ أن تسمحِى لحامل هذهِ الرسالةِ بزُجاجةٍ من نبيذِ «توكاي» الذى كثيراً ما احتَسَيْتُ منه فى قصر أبيك العظيمِ ، وكلُّ ما أرجوه أن يكون من الصّنف المعتق، وإننى يا صاحبةَ الجلالةِ ما زلتُ الخادمَ المخلصَ الخ ... »

وعند ما انتهيتُ من كتابة الرّسالةِ كانت الساعة الثالثةَ وخمسَ دقائق فسلَّمْتُها إلى خادِمى «العدَّاء» الذى سبقَ أن حدَّثتكم عنه، ففككْتُ الثقلَ المربوطَ حولَ قدمِهِ حتى يَعْدُو بأقصى سُرعة، فانطلقَ إلى «ڤينَّا» سيراً على الأقدام.

طفقتُ فى حضرةِ السلطانِ أنتظرُ عودةَ الرّسولِ، وبعدَ قليلٍ دقّت الساعةُ الثالثةَ والربعَ، ثم الثّالثة والنّصفَ، ثمّ دقّت الرابعةَ إلا الربعَ، ولم يظهر بعدُ أثرٌ للرسول، عند ذلك بدأ يخامِرُنى الشّكّ وأخذَتْ رعدةٌ تتملّكُنى لاسيّما عند ما اقتربَ السّلطانُ من الجرَسِ ليُرسلَ فى طلبِ الجلّادِ! عند ذلك سألتُه أن أخرُجَ إلى الحديقةِ لكى أتنسّمَ هواءها العليلَ فخرجتُ وفى أثرى أحدُ الحرّاسِ حتى لا أغيبَ عن عينه. فلمّا تملّكنى الضيقُ أرسلتُ فى طلبِ خادمى «مسترقِ السمعِ» ثم «الصيّادِ» فأقبلا علىّ وكانت الساعةُ إذ ذاك قد أشرفتْ على الرابعةِ.

فانبطحَ الأولُ على الأرض والصقَ أُذنَهَ ثم أجاب بأنه لايسمع صوتاً لأقدام « المدّاء » ولـكنه يعتقد أنه نائمٌ على الأرضِ على مسافةٍ بعيدةٍ من اسطنبول لأنه قد مَيَّز شخيرَه تميزاً واضحاً . ثمّ وثبَ خادمي الصَّيَّادُ على مُرتفعٍ من الأرض وأخذ يُحَملِق فى الهواء ثم أجاب :

« إنّى أرى هذا الخنزيرَ راقداً تحتَ شجرةٍ إلى جوارِ مدينةِ « بِلْغراد » والزُّجاجة إلى جانبِهِ ؛ أتريدُ يا سيِّدى أن أُوقظه ؟

وما أن انتهى من سُؤاله ودونَ أَن ينتظِرَ جوابى حتى رفعَ بُندُقيَّتَهُ وصوّبها إلى قمّةِ الشجرةِ ثم أطلقَها ، فـكسرَتْ عِدَّة من الأغصانِ المورقةِ التّى سقطتْ على ذلك النّائم ، وما كانَ منهُ إلّا أن وثَبَ على قدميْهِ وقبضَ على الزُّجاجةِ وعلى رسالة من الإمبراطورة «ماريا تريزا»، وما كانت الساعةُ الرابعةُ إلّا نصفَ دقيقةٍ حتى كان على أبواب القاعةِ السُّلطانيّةِ . فلما رأى السُّلطانُ ذلك تولّاه العجبُ وأقبلَ علىّ يضمُّنى إلى صدره ويقول : إنّه ما كان يَقصِدُ بى شرًّا . ثم إنّه طلب خازنَ الأموالِ السُّلطانيّةِ وقال له :

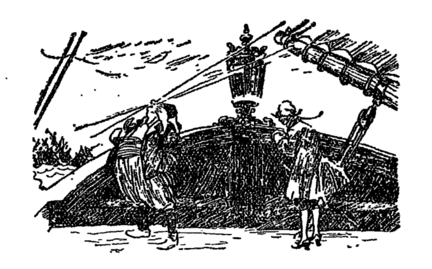
« إنّ الخدمات التّى أدّاها مونشهاوزن إلى الدولةِ التُّركيّةِ لا تُقَدَّر ولا يعرفها أحدٌ سواى ، لهذا فإننى أمرتُ بأن يُمنَحَ صديقى مونشهاوزن ، مكافأةً على أعماله العديدة من الذهبِ ومن اللآلئ ومن الأحجار الـكريمةِ مما هو موجودٌ فى خزائنى بمقدارِ ما يُمكنُ أشدَّ الرجالِ قُوّةً أن يحمِلَهُ على كتفيه » .

فلما سمع خازنُ الأموال أمرَ السُّلطانِ انحنَى وترك الغرفةَ. وبينما كان خدمى يجهّزون سفينةً سريعة لعودَتى إلى بلادى أرسلتُ إلى خادمى « حاملِ الأثقال » وتبعْنا خازنَ الأموالِ إلى الخزائنِ . فلما فُتِحت أبوابُها أخذَ خادمى يجمعُ ما فيها من كنوزٍ فى كُومةٍ واحدةٍ ثم حزمَها بحبْلٍ غليظٍ ورفعَها إلى عاتقه . وقد حدثَ هذا فى سُرعَةِ البَرْق، وما إن انتهى حتّى كُنَّا فى طريقنا نُهرْولُ إلى الميناء. أمَّا حارسُ الخزائنِ ، فلما رأى ذلك أسرعَ إلى السُّلطانِ وهو يَصيحَ ويُوَلْوِلُ قائلاً إن جميعَ ما فى خزائنِ القصرِ قد حملها خادمى على كتفيه .

وعندما سمعَ السُّلطانُ ذلك وأنّ الفكاهةَ قد جاوزتْ حدّها تملّكه الغضب، إذ ما كان يظنّ أن وعدَهُ يُوقِعهُ فى هذه النتيجة غيرِ المنتظرةِ ، لهذا أمرَ أميرَ البحرِ بأن يُجهّز الأسطولَ بأسره ليطارد سفينَتنا . وفى خلال تلك اللّيْلة كُنَّا قد مرقنا من الدردنيل وقطعْنا مرحلةً كبيرةً فى بحرِ «إيجَه» ؛ وعند ما أصبحَ الصباحُ كنَّا قد وصلنا ما بين جزيرةِ كريت والطرفِ الجنوبىّ لشبهِ جزيرة المورة ، ومِنْ ثَمّ دخلْنا البحرَ الأبيض نفسَه . عند ذلك رأيت عدداً لا يُحصَى من السُّفنِ التُّركية التى تبعَتنا فهيّجَ هذا المنظرُ فى نفسى الأشجانَ .

فى هذه اللّحظةِ تقدّم إلىّ خادمى « مُسيّرُ الرياحِ » وهمسَ فى أُذنى :

« لا تبتئسْ يا صاحبَ السّعادةِ فما هى إلّا لحظةٌ حتى تعودَ هذه القافلةُ على أعقابها كما جاءتْ، وما إن انتهى من كلامِه حتّى أسرعَ إلى مُؤخّر السّفينةِ ووقف



إلى جانب الدفّة بحيثُ كانتْ فتحةُ أنفِه اليُمنى مُقابلةً للمراكبِ التّركية وفتحة أنفهِ اليُسرى قُبالةَ السّفينةِ التي نركبُها . عندَ ذلكَ هبّتْ ريحٌ عاصفةٌ اكتسحتْ السُّفُنَ التي كانت تلاحِقُنا وعبثتْ بصَواريها وحِبالها وأشْرعتْها ودَفعتْها دَفعًا حتّى تفرّق بعضها عن بعض ، بينما كانتْ سفينتُنا ـ بما تحمِلُ من كُنوزٍ لاحَصْرَ لها ـ فى طَريقها إلى إيطاليا ، ولم تمض إلّا بضعُ ساعاتٍ حتى ألْقَيْنا مَراسِينا على شاطئها .

نعم ما أصدق المثل الذى يقول : إنّ المالَ الّذى تأتى به الرّياحُ تُبعثرهُ الزوابعُ ! وهذا ما حدث بالفعل ، وسأقُصّ عليكم خبرَهُ فى المرّةِ القادمةِ .

الليلة الحادية عشرة

في مساء اليومِ الذي عزَمَ فيه البارونُ فون مونشهاوزِن على السّفر إلى سويسرا؛ فتح صديقُه حارسُ الأحراش فمَهُ لأوّل مَرّة، وكان هذا الرجلُ ممّن لم ينقطعْ ليلةً واحدةً عن مجلِسِ البارون. ولم تَفُتْه شاردةٌ من مُغامرات مونشهاوزِن السّابقةِ. نظر حارسُ الأحراشِ إلى صديقه البارونِ وسأله عمّا إذا كانت هذه هي المرّة الأولى التي يزورُ فيها سويسرا.

عند ذلك أجاب مونشهاوزِن:

« إنّني أعرفُ سويسرا معرفةً وثيقةً، بل أعرفُ كلَّ مُرتفَع وكلَّ وادٍ فيها، وبما أنني سوفَ لا أجتمِعُ بكم إلّا بعد وقتٍ طويلٍ، لهذا رأيت أن أرْوي لكم حادثةً واحدةً جرت لي إبّان زيارتي الأولى لهذهِ البلادِ الجميلةِ، وإن كانت تافهةً إلّا أنّها طريفةٌ بعض الشيء. »

...

حدث عند ما وصلتُ هناك مع جماعةٍ من السّائحين الأجانبِ أن عقدنا العَزْمَ على أن نتسلّق قِمّةَ جبل « يُونْجْ فرَاو » الأشمِّ الّذي لم يكن قد ارتقاهُ حتّى ذلك الحينِ أحدٌ من هواةِ الرّياضة الجبليّة. وكانَتْ عِدّتُنا أحد عشرَ رجُلًا، وكان دَليلُنا يُدعى «بَسْتيان إرمان». أمابطلُ هذه الحكايةِ فابنُه الذي كان يبلُغُ من العُمْرِ ستّ

سنواتٍ ، لهذا سأقصرُ حديثى هذه الليْلة عليه .

من عادةِ صيّادِى « الشّمواه » فى سويسرا أنّهم يصحبون صغارَهُم معهُم إلى الجبالِ إذا ما استوَوْا على سِيقانِهِم ، فبذلك يتعوّدون مخاطِرَ الجبال وفُنونَ التّسلُّق منذُ نُعومةِ أظفارِهِم . ومِنَ المشاهدِ المألوفةِ فى سُويسرا أنْ تَرى طفلًا فى الثانيةِ أو الثالثةِ من عُمره يلبَسُ حِذاء الثّلوجِ مُمسِكاً بِعصا جبليّةٍ وهو على رأسِ جماعَةٍ من هواة التسلُّق من زائرى سُويسْرا .

كان «باستيل» الصّغيرُ مُنذولادتِهِ طِفلًا مرهفًا ضعيفًا ، لهذا كان لأوّل مرةٍ يَشترِكُ فى رِحلةٍ من هذه الرّحلات الجبليّةِ ، فكان لهذا تُعوِزه الخِبرةُ ، فجرّ ذلك عليهِ ضرراً بليغاً . لم تَمضِ نصفُ ساعةٍ من قيامِنا حتّى رأيناهُ يتخلّفُ عن مُتابعَةِ السَّيْرِ ، لهذا اتّفقْنا فيما بيْننا على أن يقوم كلُّ واحدٍ منّا بِحَمْلِ هذا الصّبِيّ مرحلةً وما أسرعَ أنِ اختلفَ رِفاقى فيما بينهم عمّنْ يكونُ البادىءَ بحَمْلِ هذا الصّغير ، ولكىْ أفُضَّ النزاعَ بينهم اقترحتُ عليهم أن أقُومَ بهذه المُهِمّةِ وحدِى فحملْتُ الصّغيرَ على كتفِىَّ وجعلتُه يُثبّتُ قدميْهِ فى جَيْبَىْ مِعطفى ، ثمّ عاودنا التسلُّقَ .

سارت الأمورُ على أحسنِ حالٍ وقد أبْدَى الصبيّ ارتياحًا واغتِباطًا لهذا الأسلوبِ الطّريفِ للرّكوبِ ، وأخذْتُ فى بادىءِ الأمْرِ أحِسُّ بالدفْءِ والحرارةِ ولكنْ ما لبِثْتُ طويلًا حتّى شعرتُ بالعَرَق يتصبّبُ من رأسِى ويفيضُ على جميع جِسمِى ، وكلّما ارْتقيْنا مَرْحلةً اشتدّ البردُ وأحسّ « باستيلُ » الصّغيرُ

بالقُشعريرة التى كانتْ تتسرّبُ من جسمِهِ إلى كتفىّ وصدرى . ولا أُريد أن أُحَدِّثكم عمّا رأيتُ وشاهدتُ لأنّ لذلك موْضِعَهُ ، ولكنْ يكفى أن أقولَ إنّ رحلتنا استمرّتْ على هذا النّحوِ يوْمَيْنِ وليْلتَيْنِ حتّى وصلْنا إلى خطِّ الثّلْجِ الدائِمِ ، فكُنّا ننحِتُ الدرجاتِ فى طريقِنا نحتًا حتّى وصلْنا فى النّهايةِ إلى قِمّةِ الجبَلِ ، وهناكَ أشْرَفْنا على مَنْظرٍ ساحرٍ لا يَصفهُ اللسانُ .

أما رفيقى الصّغيرُ فكاد يتجمّدُ ، وقد لفّ ساقيْهِ حولَ عُنُقى حتّى إنّنا لم نستطِعْ أن ننزعهما من مكانهما إلّا بصُعوبةٍ شديدةٍ وباستِخدامِ آلةٍ حادّةٍ . فلما نزلَ إلى الأرض لم يدْرِ كيفَ يستعمِلُ أقدامَهُ فكانت سيقانُه كالمشْلولَة ولا عجبَ ، ثم أخذ يترنّحُ يَمْنَةً ويَسْرَةً ، وما كانت إلّا لحظةٌ حتى رأيناهُ ينزَلِقُ ثمّ يهْوى فجأةً وبسُرعة الرِّيح إلى قاع الوادى . وفى تلكَ اللّحظةِ انبعثَتْ صرخةُ فَزَعٍ من ثلاثَ عشرة حنجرةً !

وكان إذا ما تَدَحْرجَ مسافةً رأينا طبقةً من الثّلجِ تُغطّى جِسمَهُ وما هى إلّا لحظاتٌ حتى استحالَ إلى كُرَةٍ هائلةٍ من الثّلْجِ راحتْ تهوى إلى بطنِ الوادى السّحيق ، وبعدَ قليلٍ لم نستطعْ أن نتبيّنها إلّا باستخدام المنظار المُقرّبِ ، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى اختفت تمامًا عن أنظارنا .

لقد عَقدتْ هذه الفاجعةُ كلَّ لسانٍ فوقفنا كالمأخوذين من الدّهشة ، وفى لحظةٍ واحدةٍ انطلق لسانى كما انطلق لسان الأب «بسْتيان» وصحنا سويا «فلْنتْبَعْهُ» ولم يجِدِ اعتراضُ رفاقِنا فتيلاً إذ لم ندع الخوْفَ من نزولِ هذه الهوّةِ (التى يبلغُ عُمقُها

ثلاثةَ عشر ألفَ قدم)يمنعنا من أداء الواجبِ ، فربطْنا أنفُسَنا بحبْلٍ واحدٍ وبدأنا السَّيْرَ إلى الأمام (وأقصدُ إلى أسفل) ولا أُريدُ أن أصِفَ ما لاقيناهُ من مشقّةٍ أثْناءَ النزولِ، ويكفى أن أقول إنَّها كانت مجازفةً خطيرة، بيْدَ أنها انتهتْ بسلامٍ والحمدُ لله عند ما وصَلْنا بعد ساعةٍ إلى بَطْنِ الوادِى لم نفقِدْ عُضواً .

هُناكَ شاهَدْنا تلكَ الكُرَةَ الثَّلجيَّةَ مُعلَّقَةً على أغصانِ شجرةٍ ناشفةٍ ، ومن حُسْنِ الحظِّ أن (بَسْتيان) كان مازالَ يحملُ فأسَهُ التى كان ينحتُ بها الثلجَ أثْناءَ صُعودِنا، وبعد جَهْدٍ ومشقَّةٍ تمكنَّا من قطعِ جذْعِ الشَّجرة وبذلك هَوَتِ الكرةُ الثلجيَّةُ إلى الأرضِ . بعد هذا بدأْنا مُهِمَّةً شاقةً فقضيْنا بضع ساعاتٍ ونحنُ نرفعُ طبقات الثّلجِ طبقةً طبقةً كما تُنظّفُ قشورُ البصلِ، حتّى سمِعْنا صوْتًا ضعيفًا ينْبعِثُ من الصّبِيّ الّذى أخرَجْناه من محبسه وهو ما زال على قيْدِ الحياةِ . ومِنَ العجيبِ أنّه لم يُصَبْ بإصابةٍ ما ، ولكنَّهُ لم يكدْ يخرُجُ إلى الهواء من مَخْبَئِهِ حتى كادَ يتجمَّدُ من البَرْدِ ، فَحمَلْناهُ إلى بيتِهِ حيثُ قضى أربعةَ عشرَ يوْمًا وهو قعيدُ الفِراشِ، وكان يُقطرُ فى فمه كلّ ساعتيْنِ شىءٌ من لبن الماعز الدافىء حتّى عادَتْ إليه الحياةُ .

وإنّ الفرَحَ ليَغْمُرُ صَدْرى عند ما أذكُرُ إنّ هذا الصّبِيَّ قد أصْبَحَ اليوْمَ رجُلاً بالغًا، وأنى سوْفَ أضمُّه إلى صدرى عند ما ألقاهُ قريبًا .

والآن أستوْدِعُكُمُ اللهَ يا أصدقائى الأعزّاء حتى أعودَ إليكم من سويسرا الجميلةِ، وإنّى أدعو الله أن يُفيض عليكم من السّعادةِ حتّى أرجعَ إليكم فى القريب العاجل.

الليلة الثانية عشرة

رويتُ لكم في الليلةِ الأخيرةِ، كيفَ هربْتُ إلى إيطاليا، بعدَ أنْ حملتُ معي جميعَ الأموالِ والجواهر التي وجدتُها في خزائنِ السُّلطانِ.

فلما وصلتُ إلى «برِنديزي» كنتُ ولاشكَّ أعتبرُ نفسي أغنَى رجل في أوربا، ولكن سُرعانَ ماأحاطت بي أسرابُ الشحَّاذينَ والمُتسوّلينَ، وأحاط بي النصّابونَ والدجّالون والنشّالون، ولم تنقضِ أسابيعُ معدوداتٌ حتى كانَ الجانبُ الأوْفر من هذا الكنز قد تبدَّدَ، وانتهى الأمرُ بأن سطتْ علينا عصابةٌ من قُطاع الطَّريق فأتَتْ على البقيّةِ الباقيَةِ منهُ، فلم تترك لنا ـ كما يقول المثلُ ـ إلّا القميصَ الذي يسترُ أجسامَنا.

ومِن حُسنِ الحظِّ أنني كنتُ أحمِلُ في جيبٍ داخليّ يلتصق بالصّدر حَفنةً من الجواهرِ واللآلىء التي تمكّنتُ من أن أستُرَها عن أعيُنِ أولئك اللصوصِ، فبعتُها إلى تاجرٍ من تجارِ الجواهرِ من أهل روما بمبلغ مائةِ ألفِ جنيهٍ ذهبيّ، ولم يكنْ هذا المبلغُ بالثّروَةِ الهيِّنة ومع ذلك فقد وزعتُ أكثره بين خدمي الخمسةِ، وهم كما تعرفون: الصّيّاد، ومُسترقُ السمعِ، ومسيِّرُ الرياحِ، والعدّاء، وحامِلُ الأثقالِ، الذين رأيْتُ أن أستغنِيَ عن خدَماتِهم إذ ذاكَ.

لم أستبْقِ معِي إلّا بعضَ المالِ الذي يكفيني للسّفر لزيارةِ صديقي القديمِ الجنرال «إليوت» في جبل طارق.

وكانَ من بيْنِ ما لم تمتدَّ إليهِ يدُ قُطاعِ الطريقِ مقلاعٌ شبيهٌ بذلك المقراعِ استَخْدَمَهُ فى يومٍ من الأيَّامِ الملكُ داود فى حَربه مع المارد « جُوليات » . وهو المِقلاع نفسُه الذى كان يَحمِلُه والدى فى يوْمٍ من الأيامِ أثْناء زيارتِهِ لانجلترا . وكانت فائدتُه له عظيمةً كما سأُبيِّن لكم .

كان والدى يسيرُ على الشّاطِئِ عندميناء «دُوفرْ» ، وبينما كان غارقًا فى تأمُّلاتِه يُفكِّرُ فى رِحلتِهِ الفجائيَّة إلى فرنسا ويستعرِضُ السُّفنَ الشراعيَّةَ التى أمامَه ليتخيَّرَ منها واحدةً، إذا بفرسٍ مائيَّةٍ تبرُزُ فجأة من البحرِ وتنطلِقُ نحوه وقد أعماها الغضبُ !



بحَثَ أبى فى جُيُوبه عن سلاح يُدافعُ به عن نفسه فلم يَجِدْ إلّا ذلك المقلاعَ ، فما كان منه إلَّا أنِ التقَطَ حصاتيْنِ ورمَى بهما الفرسَ المائيَّةَ فأصابَتْ كلُّ حصاةٍ عينًا من عَيْنَيْها ، وعلى ذلك أُصيبت الفرس بالعمَى وأصبحتْ مستأنَسَةً سَلِسَةً

القياد ، فجرّها أبى وراءهُ إلى دكّانِ صانعِ السّروج حيث اشتَرى لها سَرْجًا ثمّ عاد إلى البحر وخاض بها الماء فحملتْهُ على ظهرِها إلى ميناء كاليه على الشّاطئِ الآخَرِ من القنال الإنجليزى ، ولم تَستغرِق رحلتُهُ أكثر من ساعةٍ وعشرِ دقائقَ .

كانت هذه الفرسُ البحريةُ حيوانًا رائعَ التّكوين ذات عُنُق ممدّدٍ وعُرف طويلٍ جميلٍ، ولم تقطعِ البحرَ سِباحةً بل كانت تَعْدُو على قدميْها بسُرعةٍ لا مثيل لها فوْق قاع البحر نفسِهِ، وكانَتْ تسبح وحوْلها الملايينُ من الأسماكِ البديعةِ الرائعةِ .

ولمّا وصَلَ أبى إلى « كاليه» باع هذه الأُعْجُوبَةَ إلى صاحب فندق « الأزهار الثّلاثة » بمبلغٍ زهيدٍ قدْرُهُ تسعُمائة دوكة ، أمّا صاحبُ الفُنْدُق فعَرَضَ الفرَسَ للفُرجة فجمعَ من ذلك مالاً كثيراً أرْبَى على رِبْحِهِ من فُنْدُقه . ولمّا هبَطَ أبى باريسَ بحث عن مُصوّرٍ ماهرٍ مِن مُصوِّرى القصر الملَكى وطلبَ منه أن يرسم له صورة كُبرى وهو مُمْتطٍ صهوةَ هذهِ الفرسِ . وأكبر ظَنِّى أنكم شاهدتم هذه الصورةَ الرائعةَ ، التى أحتفظ بها إلى اليَوْم فى غُرفة نوْمى .

. . .

أعودُ إلى حكايتى الأولى ، فقد حدثَ فى جبل طارق أن خرجتُ مع صديقى «إليوت » إلى ساحل البحر لنرى بأعيُننا طبيعةَ الاستحكامات ووسائلَ الدّفاع التى أقامها الأعداء . وكنتُ أحمِلُ معى مِنظاراً مُقرّباً كنتُ اشتريتُهُ من قبطان إحدى

السُّفُن فى روما بمبلغ زَهيدٍ من المالِ ، وكان منظاراً دقيقاً له الفضل فيما حدث لى إبّان هذه الرِّحلةِ .

رأيتُ فى تلك اللَّحظة أن المحاصرين لَنا من الإسْبان صوّبوا إلى مكاننا مِدفعاً قُنْبُلَتهُ زنةُ ستّةٍ وثلاثين رطلا ، فما كان منّى إلّا أن وثبْتُ إلى أقربِ مِدفعٍ من زِنةِ ثمانيةٍ وأربعين رطلا وصوّبتُه فى التّوِّ إلى مكان مدفع الأعداء ، فما أنْ أمر القائدُ الإسبانىّ بإطلاق النّار حتى كنتُ أُصْدِرُ الأمر نفسَهُ إلى رجالنا، فانطلقت القذيفتانِ فى وقتٍ واحدٍ والْتَقَتا فى مُنتصَفِ المسافةِ بيْننا تقريباً فى الفضاء ، فصدمَتْ قُنبلَتُنا ذاتُ الثمانيةِ والأربعين رطلاً قُنْبُلةَ العدوِّ ذاتَ السّتّةِ والثلاثينَ رطلا فدفعتْها أمامها دفعاً حتّى سقطَتْ على رأسِ المِدْفعِيِّ الّذى أطلقها ، ثمّ انْدَفَعَتْ خِلال أشرعةِ السُّفنِ الواقفةِ فى الميناء ، ومن ثمّ انطلقتْ فوْقَ البحرِ صوْبَ شاطئِ إفريقيّة . أما قُنبلتُنا فبعدَ أن دَفَعَتْ قُنبلَة العدوِّ أمامها اندفعتْ صوْبَ مدفع الأعداءِ فحملتْهُ أمامَها وألْقتْ به فى حوْضٍ من أحْواضِ المِلاحة ، ثمّ اخْترقَتْ جانبَ السّفينةِ ، وحَدَثَ من ذلك أنِ اندفع الماءُ إلى داخلها فانقلبَتْ بما تحملهُ فوْقَ ظهْرِها ، وما أسرَعَ أن غاصتْ فى الماء ، فكانَتْ جُمْلةُ مَنْ غرقَ فى هذا الحادث ألف ملّاح إسبانىّ وبضعَ مئاتٍ من الجنودِ ، فلمّا رأى الجنرالُ إليوت ماصنعتُ عرَضَ علىّ وظيفةً عسكريّةً إلّا أنّنى رفضْتُ عرْضَهُ شاكراً ، وعندما صَدَرتِ الجريدةُ العسكريّةُ وجدْتُ كلمةَ شُكرٍ رقيقةً موجّهةً إلى شخْصى .

لا أظنُّ أحداً يعرفُ اسمَ الرجُل الّذى يعودُ إليه الفضلُ فى إنقاذِ جبلِ طارقٍ من الاسبان فى يَوْمٍ من الأيّام ؟

فإذا سمعتُمْ ما سوْفَ أقصُّهُ عليكم فإننى أتركُ لِلبَاقتِكُم استنتاجَ ذلك .

فى ذات ليلة حالكةِ الظّلام خرجتُ متاصِّصاً إلى معسكر الأعداء وقد أسْتَخْفَيْتُ فى زىّ قسّيس كاثوليكىّ حتّى اقتربْتُ من خيمة الكونت «أرْتُوا» وكان إذ ذاك يتصدَّرُ مجلسًا عَسكريًّا من كبارِ رجالِ الجيْشِ وضُبّاطِهِ للمشاوَرة فى خُطة الهجومِ على الحِصْن ، فضَرَبوا لذلك مَوْعِداً فى صَباحِ الغدِ الباكر .

قرّ قرارُهم على أنّه إذا ما تفتّح الصّباحُ تَفْتَحُ جميعُ مدافِعِهم وعِدَّتُها ثلاثمائة مِدْفعٍ أفواهها فى لَحْظَةٍ واحدةٍ فتوقظ بدويّها الهائلِ المحاصَرينَ فى الحِصْنِ وتصُبّ عليهم نارَها الحامية .

وهكذا سمعتُ ما دارَ فى مُعسكَرِ العدوّ بأُذُنِىّ ولم تَفُتنى شاردةٌ منه ، فلما انتهى المجلسُ وتفرّق أعضاؤه وشمِلَ السُّكونُ المكانَ خرجتُ من مَخْبَئِى ورُحْتُ أجُوسُ خِلالَ خِيامِ المُعسكرِ وأنا أُفكّرُ فى وسيلةٍ لأقْضِىَ بها على خُطّةِ الأعْداءِ . ويحسُنُ بى أن أنوّهَ كيف انّ جميعَ رجالِ المُعسكَرِ استغرقوا فى سُباتٍ عَميقٍ ، بل إنّ الحرّاس تركوا أماكِنَهم واستَسْلَموا للنّوْم رغبةً منهم فى استجماع نشاطِهِم لِهُجوم الغدِ الكبير .

فلما دقّتِ الساعةُ الواحدةَ من الصّباح وكنتُ قدِ انتهيتُ إلى خُطّةٍ

مُعيّنةٍ ، تسرّبْتُ فى هدوءٍ إلى إحدى بطّاريّات العدُوِّ وتخيّرْتُ أكبرَ مدافعها وأثقلَها فرفعتُهُ من مكانِهِ وقذفتُ به فى البَحْرِ فسقطَ على بُعد ثلاثةِ أميالٍ من الشّاطئِ .
وإذا كان النجاحُ حليفى فى التخلُّص من هـذا المِدْفَعِ الثقيلِ فلا شكَّ أن مُهِمَّتِى أصبحتْ أَهْوَنَ عندَ ما أخذتُ أتخلّصُ من مدافع العدوِّ الأخرى واحداً واحداً ، فـكانَتْ جُملةُ ما ألقيْتُ منها فى الماءِ ثلاثمائة وستّةً وعشرينَ مِدْفعاً حتى أضنانى الجهدُ بعدهذا العملِ الشاقّ ، ومع ذلك فلم أتَخَاذَلْ عن جَمْعِ مركباتِ المِيرة والذخيرة وغيرها من مُعَدّات العدوِّ فى كُومةٍ واحدةٍ وأشعلتُ فيها النارَ .
وما أن دوّى انفجار البارود فى الفضاء حتى عمّ الذعرُ الأعداء ، فأسرعَ الـكونت «أرتوا» إلى الانسحاب بخُطًى سريعةٍ وتبعهُ جيشهُ ، ولم يستقرَّ لهم قرارٌ حتى وصلوا إلى باريسَ بعدَ أربعةَ عشَرَ يوما . وكان من جرّاء الفزعِ الذى أصابَهم عندَ حُدوث ذلك الانفجارِ أن اضطربَتْ بُطونُهم وأصابَتْهُم وعكة شديدة استمرَّتْ ثلاثةَ أشهُرٍ كاملةٍ لم يتذوّقوا خِلالَها طعاماً ، بل كانوا يعيشون على الهواء .

. . .

حدثَ بعدَ سبعةِ أسابيعَ أو ثمانيةٍ أن كنتُ جالساً ذاتَ صَباحٍ حولَ مائدةِ الفُطور مع الجنرال «إليوت» فإذا بقُنبُلةٍ تَخرِقُ الغُرفةَ وتسقُطُ بيننا على المائدةِ فأسرعتُ ونزعتُ الـكبْسُولةَ منها ، وبينما كنتُ أُطِلُّ من النّافذةِ على مُعَسكرٍ



قريب للأعداء وجدتُ جمعاً مُحتشداً ، فلما دققْت النظرَ بالمِنظارِ المقرِّب رأيْتُ مشنقةً منصوبةً وضابطيْنِ إنجليزيين كان قد قُبض عليهما فى الليلة الماضيةِ وحُكم عليهما بالموت شنقاً لاتهامِهما بالجاسوسيَّةِ .

قرَّرْتُ أن أفعلَ شيئاً وأن أضعَ حدًّا لهذا المَنظرِ ، ولما كان من العَسيرِ أن ألقِيَ القُنبُلةَ بيدى لِبُعدِ المسافةِ بيننا التجاتُ إلى استخدامِ المقلاعِ الذى سبقَ أن حدَّثتكم عنه ، وبعدَ أن جهَّزتُ القنبُلةَ بكبْسُولةٍ جديدةٍ قذفتُ بها على ذلك المكانِ الذى نُصِبَتْ عليْهِ المشنقةُ ، فسقطتْ فى وسطه وانفجرتْ فى الحال فأصابتْ جميعَ الواقفين وقضَتْ عليهم ولم ينجُ من شرِّها إلا ذانِكَ الإنجليزيَّانِ إذ كانا مُعَلَّقين فى الهواء ، كما نَجا الجلّادُ الذى كانَ واقفاً على رأسِ السُّلَّمِ . ثم انتثرت شظايا القنبلة فأصابَتْ أعمدَةَ المشنقة فهدمتْها وأصابت الجلّادَ هذه المرة فماتَ . أمّا

الضابطان فوقعا على الأرض بين الموتِ والحياةِ .

وبعد قليل عاد أحدُهما إلى صوابه فحلّ الحبلَ القنّبَ الغليظَ من حول عنقه كما فعل ذلك زميلهُ . فلما وقفا على قدَمَيْهما وجدا كلّ مَن حولَهُما قد فارق الحياة ولكن لم يطل السكونُ حتّى مزقته أصواتٌ غاضبةٌ اندفعَ أصحابُها على عجلٍ من المُعسكر القريبِ . وكان من الطبيعيّ ألّا ينتظر الضابطان تكرار المأساة بل أطلقا السّيقانَ هربًا إلى الشاطئ واستولَيا على ظهر قاربٍ مربوطٍ بعد أن قيّدا مَلّاحَيْنِ وجَداهُما نائمين في جوفه وسارا به إلى إحدى سفننا الرّاسيةِ.

كانت هذه المرّةَ الوحيدةَ التي استخْدَمْتُ فيها ذَلِكَ المقلاعَ في شأن من شؤوني ، ولما كانَ ضعيفًا لا يحتمل هـذه المحاولات العنيفةَ فقد تمزقَ أكثرُه بفعل تلك القنبلة ولم يبق منه إلا مِقبضُه لهذا احتفظتُ به بين مخلفاتِ الاسرة التاريخيّة ، التي إن تفضّلْتم بزيارة منزلي فإنني سأكون جِدّ مُغتبَطٍ بإطْلاعكم على كثير من طرائفها .

. . .

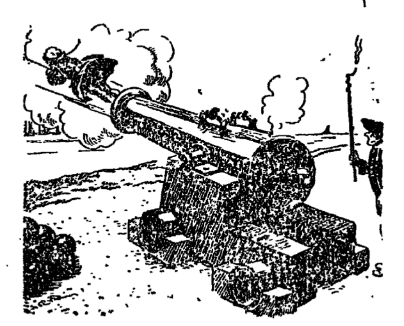
نزحتُ من جبَل طارق بعد ذلك بقليل وسافرتُ إلى انجلترا وهناكَ جرى لي حادثٌ أعتبره أعجبَ ما وقع لي في حَياتي .

كان ذلك في يوم ٤ يونيه على ما أذكر ، وكنتُ قد سافرت إلى ميناء «وابنج» لأشحن بضاعةً بطريق البحر إلى «همبُرْج» ، وبينما كنتُ سائرًا على ساحِل البحرِ وكانت الشّمسُ تُرسِل أشعّتها الذهبيّة على الأرض وكان التّعبُ قد أخذ مِنّي مأخذَهُ،

بحثتُ عن مكان ظليل لأقيل فيه فلم أجِدْ أروحَ من فُوهَةِ مدفع ضخم كان منصوبا في ذلك المكان فتسرَّبْتُ إليه وتمدَّدْتُ فيه .

كان ذلك اليومُ عيدَ ميلاد مِلك الانجليز ، وكانت جميعُ المدافعِ في صباحِ اليوم قد حُشِيَتْ بالبارود استعداداً لإطلاقها إذا مادقَّت الساعة الأولى بعد الظُّهر وكنتُ جاهلاً أمرَ هذا كله ، وسُرعان ماغَلبنى النُّعاس فاستغرقتُ في نوْمٍ هادئٍ مختفيًا عن الأنظار في فُوهَةِ ذلك المِدفع .

وعند ما دقَّتَ الساعةُ الأولى تمامًا جاء المِدْفَعِيُّ وأشعل البارودَ فانفجر وحمل صديقَكمْ « مونشهاوْزِن » في الفضاء يتقدَّمه رأسُه فَشَقَّ الفضاء على هذا النَّحْوِ فوق مياه نهر التيمز الذى كان عرضه ستةَ أضعاف عرض نهر الإلب عند همبرج ثم سقط صديقكم وانغرسَتْ رأسُه في جَوْف كُومَةٍ من التِّبْنِ .



وكان الذهولُ الذى أصابنى جعلَنى أُتابع غفوَتى وأستمرُّ فى نومى الذى كنتُ مستغرقاً فيه منذُ أنِ اختفيْتُ فى فُوهة المدفع ، ولولا أن أحدَ الفلّاحين جاء بعدَذلك بثلاثة أشهرٍ ليحمِلَ التِّبْنَ إلى السُّوق لكانمنالمحتَمل جدًّا أنأستمرَّ فى نومى إلى ما بعدَ هذا التاريخِ .

... لاحظتُ فى بَعض الأحْيان أنّ بَعض الجالِسين إذا ما استَمعَ إلى روايةٍ من هذه الرّوايات يَعتريهِ الشك فى حقيقتها ويبدو ذلك على مُحيَّاهُ ، ولكى أُثبِتَ أنّ مارويتُهُ حقيقةٌ لا يعتورها الشكّ، أذكُرُ لكم أن شجرةً من شجرِ البرقوق كانتْ قائمةً فى جِوار كُومَة التّبْنِ التى كنت نائماً فى جَوفها ، ففى شهر يونيه كانت الشجرةُ مزهِرَة ليس إلا، فلما استيقظْتُ رأيتُأغصانها وقدمالتْ بأشهى ثمر البرقوق وأطيبِهِ حتّىأننى لم أتمهّلْ بل قطفتُ منه وأكلتُ بشهيَّةٍ عجيبةٍ .

وقد كانت دهشة أصدقائى فى لندنعظيمةً لاختفائى عنهمثلاثةَ أشهُرٍ كاملةً بحثوا خلالَها عنّى فى كلّ مكان عبثًا ، حتى عُدْت إليهم فى يومٍ من أيّام سبتمبر الباردة فى لباسٍ من ملابس الصّيفِ . ويُمكنكم أن تتصوّروا يا أصدقائى مبلغ دَهشتهم !

الليلة الثالثة عشرة

لا أدرى يا أصدقائى ويا رفاقى هل سمعتم بالرّحلة العلمية التى قامَ بها الكابتن «نِبْس» الذى يدعونه الآن اللورد ميلجريف ـ وهى الرحلة التى جاسَ فيهـــا خلال البحر المتجمد الشّمالى ؟ ففى هذه الرّحلة رافقتُ الكابتن لا كضابط بل كصديق، وبعد أن خلَّفنا جزيرةَ «شِبِتْزِ بِرْجِنْ» وراءنا قضينا أربعةَ عشر يوماً لا نرى فيها إلّا الماءَ والهواءَ وكانت تتراءى لنا من بعيدٍ جبالُ الثّلج العائمة التى كان ارتفاعُها يبلغ ثلاثةَ أضعافِ أعلى ساريةٍ فى السَّفينةِ .

من عادتى إذا كنتُ فى رحلةٍ من الرحلات أن أُدقّق النظرَ حوالىَّ لأتعرّف طبيعة المكان وما قد يَحْتويه من غريبٍ أو طريفٍ . فرفعتُ مِنْظارى المُقرّب وأخذت أرقُبُ المكانَ الذى كُنّا فيهِ فرأيتُ على أقربِ جبَلٍ ثلجىٍّ ـ وكان يبعُدُ عنا نصفَ ميل ـ دُبّين قُطبيّيْن يتعاركان على مايَظْهر، فأسرعتُ وحملْتُ بُنْدُقيّتى وسرتُ إلى حيث ذلك المرتفِعُ وكلّما اقتربتُ من قمّته تعثّرتُ فى السَّيْر من الإعياء والخوفِ من المَخاطِرِ التى قد تُصادفُنى ، وقد كاد يحدُثُ ذلك بالفعلِ عِند ما حاوَلتُ أن أعبُر هُوّةً سحيقةً . لم أسِرْ طويلاً حتّى اقتربتُ من مكانِ الدُّبّين ولشدّ ما كان عَجَبى عند ما وجدتُهما يلعبان ولا يتعاركان .

وعنـد ما دققْت النَّظرَ فيهما وجدتُ أنّ الواحدَ منهُما في حَجْمِ الثّوْرِ الـكبيرِ على الأقلّ ، ثم حَسَبتُ بيني وبيْنَ نفسي ثمنَ فِرائِهما الفاخرِ ، فأنزلتُ بندقيّتي وما كِدْتُ أفعلُ حتى انزلقَتْ قَدَمي اليُمنى فوقعتُ على الأرضِ. وكان مِنْ شدّةِ الصّدمةِ ان فقدْتُ شُعوري وأُصِبْتُ بإغماءٍ شديدٍ ، ولمّا فتحتُ عيْني ـ ولعلّ ذلك بَعد نِصفِ ساعةٍ ـ وجدتُ نفْسِي في موقفٍ لا اغبطُ عليه ، رأيْتُ ـ أحدالدّبّيْنِ وقد انحَنى عليّ وجْهاً لِوَجْه بل إنّه التَهمَ الحزامَ الجلديَ الذى أربط بِهِ سِرْوالى . يا لهُ مِن مَوْقفٍ هائلٍ ! لقد كانَ صدرى تحت بطنِه،أمّا سيقانى فكانتْ طليقةً . لَسْتُ أدْرى حقا كيف جرّنى الدُّبّ إلى هذا المـكانِ ؟ وكلُّ مافـكّرت فيـهِ هو أنْ أخرجتُ سِكّيني ـ هذهِ السكّين الّتى تَرَوْنَها الآن بأعيُنـكم ـ وقبضتُ على رجل الدبِّ الخلفيَّةِ اليُسرى وقطعتُ ثلاثةَ أصابعَ من قدَمِهِ !

وما قدّرْتُهُ حصَلَ بالفعلِ ، فإنّ الدُّبّ أخذَ يزعَقُ ويَعوِى من شدّةِ الألمِ فتركنِي أتزحْزَحُ من مكانى حتى تمـكنتُ والتقطتُ بُندقيّتِي الّتى كانتْ ملقاةً قريباً منّي وأطلقتُ منها رَصاصتيْنِ في صميم قلبه وماهِيَ إلّا لحظةٌ حتى ارتمى على الأرضِ ـ أقصدُ على الثّلجِ ـ فاقدَ الحياةِ ، نعم لقد تمـكّنتُ من قتل أحَد هذه الوحوشِ الضّاريةِ الفتّاكة، ولـكنّ هذه الطلقةَ سُرعانَ ماجمعَتْ عليّ الآلاف من الدّبيةِ الّتي كانتْ نائمةً فاسْتَيْقَظَتْ فأحاطَتْ بِي في شِبْهِ دائرةٍ نصفُ قُطرها نصفُ ميلٍ !

مِن كلّ مَكان ومن كلّ صوبٍ وحدَبٍ ، أقبلَتْ نحوى هذه الحيوانات

الفاتكة. ليسَ هُنالك وقتٌ ليَضيعَ سُدًى لا! بل إنّ حياتى نفسَها قد ضاعَتْ إذْ ليسَ لدىَّ وسيلةُ الخلاصِ.

والآنَ ماذا أنا صانِعٌ؟

فعلْتُ ما يفعل الصيَّادُ المتمرِّنُ عند سَلْخِ الأرنبِ، إذ عمدتُ إلى الدُّبِّ المقتولِ فسلختُ جلدَه ثم دخلْتُ فيهِ واختفيْتُ وأُخرجتُ رأسى مِن فتْحةٍ تحتَ رأسِ الدُّبِّ حتّى كانَ مَن يَرانى فى تلْكَ الساعةِ يَظُنُّنى الدُّبَّ نفسَهُ، وما هى إلّا دقيقةٌ بعد أنِ انتهيْتُ من هذا العمل حتّى وصل إلى مكانى الصفُّ الأوّلُ من قطيع الدِّبَبَة، وكان لا يقل عن عِشرين دُبًّا، وما هِيَ إلّا دقائقُ حتّى كان المكانُ حَوْلِى يصخَبُ بِعُثاتِ من هذه الحيوانات.

لقد كنتُ أحسُّ وأنا مُتدثِّرٌ بهذا الفِراء السَّميكِ بِالْبَرْدِ تارةً وبالحرارةِ الشَّديدةِ أُخرى، ولكن بَراعَتى فى الاختِفاء لم تَخْنِّى. كان المكانُ حوْلِى كما قلت يزْخَر بهذه الحيوانات الكاسرةِ التى كانت تزُوم وتهمهم وتدورُ حوْلِى كأنّها تبحثُ عن شىءٍ فَقيدٍ، ولا شكَّ أنها خُدِعت بالقناعِ الذى ألبسُه فلم تُهاجِمنى حتى ظننتُ أنّ الأمرَ قد انتهى عند هذا الحدِّ الى أنْ وقع حادثٌ عجيبٌ، وذلك أن هذه الحيوانات أخذت ترْقُصُ وتتمايَلُ وتدفعُنى وكأنَّها تَدْعُونى إلى مُشاركَتِها فى ألعابِها. فلمْ أترَدَّدْ بل طفِقتُ أحاكِيها بقدرِ ما أستطيعُ تمثيلَه من هذه الحركاتِ، بينما أخذتُ أفكِّر فى الوسيلةِ التى أستطيع بها أن أتخلَّص من هذه الصُّحبَةِ التى لا خَيْرَ فيها.

تذكَّرت فى تلك اللَّحظةِ أن الضَّربة التى يُطعَن بها المقاتلُ من الخلف طعنةٌ قاتلةٌ مُميتةٌ لساعتها، لذلك فكَّرت فى أن أستَعينَ بها فى الخلاص من هذا المأزق فلم أتردَّدْ بل قبضتُ على مُدْيتى وطعنتُ بها أضخمَ هذه الدِّبَبَة فى أعْلى ظهره بيْنَ كَتفيْهِ ...

لستُ ألومُكم إذا سألتُمونى عمّا إذا كانت هـذهِ الطَّعنةُ محاوَلةً جريئةً من جانبى؟ والحقيقة أنها كذلك، لأنه من الواضِحِ أن هذا الوَحْشَ إذا لم تقتُلْه الطعنةُ انقلَبَ علىَّ وانتقم منِّى شرَّ انتقام، ولـكنّ مُحاوَلتى والحمد لله تكلَّلت بالنَّجاح؛ ودون أنْ يُحْدِثَ الدُّبُّ صوْتًا ما سقط كالصخرةِ الصَّماء تحت أقدامى.

فَدَفَعنى هذا الانْتِصارُ إلى أن أكرِّرَ التجربة آلاف المرّاتِ، وكان من حُسنِ حَظِّى أنِّى قد تناوَلْتُ كِفايَتِى من الطَّعام على مائِدةِ الفُطورِ، لهذا كنتُ أحسُّ بالنَّشاط كُلّما قطعتُ شوطا فى هـذه المُهِمَّةِ، فكنتُ أُطيحُ بهذهِ الدِّببَةِ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ حتى أتيْتُ على آخرها، عند ذلك خَرجْتُ من مَخْبَئِى مُنتصِراً كما فعلَ شمشون عند ما قَضَى على ألْفٍ من الفلسْطِينيينَ.

ثم إنِى ذهبتُ إلى السّفينةِ وعُدتُ ومَعِى ثلاثةُ أرباعِ مَن عليها من الملّاحين والعمّالِ الذين طفِقُوا يسلَخُونَ هـذه المئاتِ من الدِّببَةِ حتى إذا ما انتهوْا عادوا بفرائها الثَّمينَةِ الى ظهْرِ السَّفينة.

وعندما مالَتِ الشَّمسُ للمغيبِ كانَتْ مُهمَّتِى قد انتهَتْ، وكم أسِفَ القُبطانُ

« فِنْس » على أنّهُ لم يَشْتَرِكْ فى هذهِ المركةِ الهائلةِ الّتى انتهتْ بغنيمَةٍ عظيمةٍ من فِراءِ الدّبّ .

. . .

قمتُ برِحْلةٍ بحريّةٍ أُخرى بصُحبةِ القبطان «هَمِلْتُن»إلى جُزُرِ الهند الشرقيّة، وقد حدثَ أثناء هذهِ الرّحلةِ أن كنتُ أُصطَحِبُ كلباً بارعاً من كِلابِ الصّيد ، ففى يَوْمٍ منَ الأيامِ اجتمع الرّأىُ ـ بناءً على ماقامَ به الرُّبّانُ من دِراسَةٍ ومن حِسابٍ ـ على أنّ سَفينَتَنَا تَبْعُدُ عن أقْرَبِ شاطِئٍ بما لا يقِلُّ عن ثلاثمائةِ ميلٍ، بَيْدَ أنّى اعترضتُ على ذلك إذْ لاحظتُ أنّ كلبى مُنذُ ساعةٍ مضت يُبْدِى من الحركاتِ ما يدلُّ على أنّ وَحْشاً من الوُحوشِ قريباً منّا، ولـكنّ هذا الاعتِرَاضَ لم يفْعَل أكثر من أن يُثير عاصفةً من الضّحِكِ بين رِجالِ السّفينة لأنه يناقِضُ ما تَدُلُّ عليْهِ الخرائطُ البحريّةُ .

ولمّا كانَتْ ثِقَتِى بكلبِى لا تَحْتَمِلُ الشّكّ لم أتردّدْ ، بل تحدّيْتُ القُبطان برِهانٍ قدرُهُ مائةُ جُنيْهٍ على أننا سنلْتقى بَعْدَ قَليلٍ بِوَحْشٍ من الوحوشِ . فلمّا سمعَ القُبطانُ هذا ـ وكان رَجُلاً طيِّبَ القلبِ ـ ابْتَسَمَ وهزّ كتِفَ طبيبِ السّفينةِ ، وقال له :

ـــ « إنى لا أقبلُ رِهاناً إذْ أشُكُّ فى سَلامَةِ عقْلِ مونشهاوزن ! »

فأجابَهُ الطّبيبُ هَمْساً ، ولـكِنْ بصوْتٍ يتسنّى لى سماعه :

— « لا ياسيِّدى القبطان ! إنه فى تمام عقلِهِ وصحَّتِه غير أنَّ ثقتهُ بأنف كلْبه أشدُّ من ثِقَتِهِ بعُقول جميع مَنْ على هذا المَرْكَبِ من الضُّبَّاط، وأنه سيفقِدُ الرّهانَ ولا ريْبَ فى ذلك ؛ ولـكنْ مع ذلك فلَهُ أن يكسِبَهُ ... »

-وفى أثناءِ ذلك كنتُ أُراقِبُ كَلْبِي ، فازْدَدْتُ يقيناً بأنه لا يُـكذِبُنِى لهذا لم أتردَّدْ فى أن أعرِضَ الرّهانَ مرّةً أُخرى على القبطان الذى لم يَرَ بعد ذلك كلِّه وسيلةً إلَّا الموافقةَ ، وما كـدْنا ننتهى من المصافحَةِ -دليلاً على قبُولِ الرّهانِ- حتى كانَ بعضُ الملَّاحين الذين يَشْتَغِلون بالصَّيد يَسْحَبون كلباً كبيراً من كلاب البحرِ إلى ظهرِ السّفينةِ ! عند ذلك ازدادَ اضطرابُ كَلْبي كما يفعَلُ عادةً عند ما يقْتَرِبُ من صَيْدٍ بَرّىّ . ولمّا فتَحْنا بطنَ كلبِ البحرِ وجدْنا ستّةَ أزواجٍ من الإوزِّ البرية وكانتْ جميعُها حيّةً . ولا شكَّ فى أنّ هذه الطيورَ المسكينةَ كانَتْ قد قَضَتْ مُدةً طويلةً فى سِجنِها هذا لأننا ألْفَيْنا إحداها راقدةً على سبعةِ عشرَ بيضة .

وفى تلك اللّحْظةِ التى فتَحنافيها بطْنَ السّمكة فقستْ إحدى هذه البيْضاتِ .

فأخذْنا هذا الـكتـكوت ووضعناهُ مع أُسرة من القُطيطات كانتْ قد وُلِدتْ فى تِلْك السّاعة وسَرعان ما توَثقَت الصداقة بيْنَ الـكتْـكوتِ وبيْنَ القُطيْطاتِ الأربعةِ . ولَمْ تَخْلُ مائدتنا خِلالَ هـذه الرِّحلةِ من الطُّيورِ المَشْوِيّةِ إذ كانت تلك الوزاتُ تبيضُ وتفقِسُ بغير انقِطاعٍ .

...

قضينا فى رحلتنا هـذه بِضعَةَ أسابيعَ حتّى وصلْنا إلى مكانٍ يَبْعُدُ مائة ميل إلى الغربِ من سومَطْرَه فعَبَرْنا خطّ الاستواء بشمسه اللّافِحَةِ ويمّمنا شمالا فى خليج البنغالِ صوْبَ كَلْكُتا، عند ذلك أبْصرْنا قَطيعاً من الأسماكِ الهائلة أحاطَتْ بالسّفينة حتّى أنّ مُرعتها تأثّرَتْ كثيراً بِفعل هذه الأسماكِ .



كانَتْ إحداها مِن الضّخامةِ بحيثُ أنّنا لم نستطِعْ تقديرَ طولها حتّى استعنّا فى ذلك بالمنظارِ المُقرِّبِ ! وأخذَتْ هـذه السّمكةُ الهائلةُ تقترِبُ منّا شيئاً فشيئاً حتى إذا حاذتْنا فتحتْ فمًا واسعًا كالبوّابَة الضّخْمةِ فانحرفَتْ سفينَتُنا نحو هذا الفمِ المفتوحِ بسارياتها وأشرعتها وجميعِ ما عليها وكانت السّاريةُ الكُبرى تبدو لنا بيْنَ الأسنانِ والأنيابِ وكأنّها عُودُ ثِقابٍ ، ولا أظنكم تصدقوننى إذا أكدت لكم أن مقامنا بين فكّيّ هذه السمكةِ كان مُريحًا مُمْتِعًا ، مع أنكم تعلمُونَ عنى أنه يستحيلُ علىّ أن أكْذِبَ أو أُغيّرَ الحقيقة . ولعلّ رغبتى فى تصويرِ الواقعِ على حقيقتهِ طبيعةٌ مُتأصّلةٌ عنـدى لأنّنى أعرِفُ أقرباءَ لى نزلَتْ بهم إصاباتٌ

خَطيرةٌ فى بَعْض مواقع القِتالِ لا يتحدَّثون عنها اليومَ إلَّا فى صُورةٍ هي دُون حقيقتِها.

وبعد أن مَكَثْنا وقتًا حيْثُ كُنَّا، فتَحت السّمكة فمها فاندفعَ الماء فَجرَفَ سفينَتنا ـ ولم تكن مَركبًا صغيراً ـ إلى جَوْفِها، وهُنالِكَ وقد امتنعت الرِّياحُ جِدْنا فى مَكانِنا. أمّا الهواء فكانَ دفيئًا مُشبعًا بِبُخارِ الماء لهـذا لم يكن محتملاً، أمّا الظّلام فكان دامِسًا فى هـذا المكان الحبيسِ ولم تكن تنيره من وقْتٍ إلى وقْت إلّا أضواء بعضِ المشاعلِ التى لم يسطعْ نورُها إلّا فى دائرةٍ ضيِّقةٍ غيرَ أنّها كانتْ تُضفى على المكانِ بأسرِه شيئًا مِن وقْتِ الغسَق، وهناكَ فى جَوْفِ هذا الحوت وجدْنا أكثر من هِلْبِ سفينة واحدة وأحمالاً من السّلاسِلِ الحديديَّةِ وقواربَ وعَدَداً لا يُحصى من السّفائنِ بعضُها مُحمّلٌ بالبضائعِ وبعضُها فارغٌ وجميعُها قد وَجَدَت طريقها إلى بَطْن هذا الحوت.

أمّا الشّمسُ والقمرُ والنجومُ فلم يكن من سبيل لرؤيتها فى هذا المكان وكان من البديهى ألّا يكون للنّهارِ أثرٌ فى هذا العالمِ السّفلىّ، وكان الماءُ الّذى يطفح به بطنُ الحوتِ يتأثّرُ بعامِلِي المدّ والجزْرِ كما تتأثّرُ بهما مياهُ البحرِ؛ ففى كلِّ يومٍ ترْتفعُ مياهُ المدّ ثم تعود إلى الهبوطِ، فإذا ما افتَتحَ الحوتُ فمهُ للشُّربِ تدَفقتِ المياهُ وأصبحَ جوفُهُ وكأنه بُحيْرَةُ «جنيف» اتّساعا، فلا يقلُّ مُحيطُهُ عن ثلاثين ميلاً ثم يأخُذ هذا الماءُ فى الهبوطِ شيئًا فشيئًا حتى إذا بلغ الجزرُ حدّه مالَتْ جميعُ السُّفُنِ كما تميلُ فى الماء الضحضاح إلى أن يعود الماء ثانيةً فيحْمِلها على متْنِهِ. فإذا كانَتْ ساعةُ

الجزر كنّا نخرُجُ على أقدامِنا نتَبَادَلُ الزِّيارَةَ بينَنا وبيْنَ غيرِنا مِنَ المسْجونين فى هذا المكان ، أمّا فى ساعاتِ الفيضانِ فكنّا نستخدِمُ صغارَ القوارِبِ لِنَصِلَ إلى جيرانِنا ، وقد علمتُ أن بعض هؤلاء قضى فى هذا الحبْس بِضعَ سِنين .

وإننى لا أكادُ أَعْقِلُ كيفَ أن هؤلاء النَّاسَ ارتَضَوْا أَنْ يَعيشوا فى هذا المكانِ أعوامًا طويلةً دُون أن يَجِدوا لأنفُسِهِمْ مَخْرَجًا ، ولو أنّهم تمكّنوا مِن فَتْحِ حفرة فى جِسمِ هذا الماردِ أو أنهم عَمِلوا على القضاءِ عليهِ بتخريبِ صمامات قلبه لتمكنوا من الخلاص . ثم إننى اجتمعتُ بمقدِّم سفينتنا وأخذت وإياه نتباحثُ فيما إذا كان مِنَ المَيْسور أن نَرْبُطَ عدّةً من السّوارى سويا ، فإذا فَتَحَ الحوتُ فاهُ ثبّتْناها بيْنَ فكَّيْهِ حتى يمتنعَ عليهِ قفلُهُ . فلما انتهَيْنا إلى هذا الرأْيِ تخيّرْنا سبعًا من كبار السّوارى وحَزَمْناها سويا ثم تخيّرْنا مائة من الرِّجالِ الأشداء ليكونوا على استعدادٍ حتى إذا فتحَ الحوتُ فاهُ ثبّتوا هذه السّارية بين فكّيْه فنعوا لسانه الهائل من الحركةِ ومنَعوا فكّيْه من الانطباقِ ثانيًا .

فما إن اندفعَ الماء إلى جَوْفِ الحوتِ حتّى بَدَأَتْ صُنُوف من القوارب والسُّفُنِ كبيرِها وصغيرِها تتلمّسُ طَريقها للخروجِ ولم يُطبِقْ هذا الماردُ فكّيْه إلا بعد أن وَجَدَتْ هذه الجموعُ المحتشدة سبيلَ النّجاةِ والحريّةِ ، ولم يتخلّف إلّا النَّزْرُ القليلُ الذى كُتِبَ عليْهِ أن يعيشَ فى هذا العالَمِ المجهول .

خرجَ هذا الأسطولُ فى شَكْلِ مُظاهَرَةٍ بحريّةٍ بديعَةٍ نظّمها أكبرُ

القَباطنةسِنًّا؛ كانَتْ عدةُهذه القافلةِ نيِّفًا وسبعينَ سفينةً عدا صغارِ القواربِ والمراكِبِ.

وعند ما خرجْنا إلى الهواء لَم نَكُنْ نَعْرِفُ أيْنَ كُنَّا ؟

بيدأن جميعَ ضُبَّاط هذه السُّفُن ـ وهم من شعوبٍ وأجناسٍ مُختَلفَةٍ ـ اجتمعَ رأيُهُم على أننا في بحر قَزْوِين وهو ـ كما تعرفونَ ـ بحرٌ مُغلق لا يتَّصِلُ بغيره من البحارِ ولا يصُبُّ في مُحيطٍ من المُحيطات . لذلك كان هذا دليلاً لا يقبل الشَّكَّ على أنَّ هنالك بحاراً سفلية تصِلُ البِحارَ بعضَها ببعضٍ ، فجاءَ ذلك الحوتُ بِنا منَ المحيطِ الهنديِّ إلى هذا البحرِ عن طريقِ هذه المَجارى الأرضية .



أقلعَتْ سفُنُنا كلُّ جماعةٍ منها في اتجاهٍ خاصٍّ ، ولم يأتِ المساء حتى وصلْنا جميعًا إلى الشَّاطئِ الدَّائريِّ الذى يحيطُ بِنا . ولما بلغت سفينتُنا مرساها كنتُ أوَّلَ مَن وثَبَ منها إلى الأرضِ فلم أسر طويلاً حتى استرعت سمعى غمغَمةٌ عالية وماإن تلفَّتُّ حتى أبصرْتُ بجانبي دُبًّا أخذَ يقتربُ منِّي وهو فاتح ذِراعيْهِ كأنه

يَسْتقْبلنى، فلم أتهيَّبْ بل تقدَّمْتُ منه وأمْسَكْتُ بكلتا كفيْه وهززْتهُماهزًّا عنيفًا لأرُدَّ تحيَّتَه ، ولكنْ شدَّة قبضتى جعلتْهُ يُحاولُ الإفلاتَ منّى وأخذَ يعْوِى ويصْرُخُ من شِدَّةِ الألمِ ، ثم إنّى خَفّفْتُ عنه شدة القبضة ولكنْ تركتُهُ واقفًا على قدَمَيْه عِقابًا له حتّى عضّهُ الجوعُ .

ولا أدرى كيفَ عادَ القُبطانُ هملتن إلى انجلترا ؟ وكلُّ ما أعلمُه أنه مرّ بى فى اليوم الثّانى مائتانِ من رفاقِنا من نُزلاءِ جوْفِ الحوت ونُمْ فى طريقهم إلى إيران ، فلم يَكنْ منهم إلا أن اختارونى قائداً لهم فى رحلتهم ودليلاً لقافلتهم ، وقد صحبنى فى هذه الرحلة عِشرونَ من رجالى !

الليلة الرابعة عشرة

وصلنا إلى مدينةِ باكُو على بحر قزوين وسارت قافِلتُنا جنوبًا بحذاء الشاطئ حتى وجدْنا أنفُسَنا فى إحدى المقاطعات التى يحكمها شاهُ إيران ، وسُكّانُ هذه المنطقةِ من أهلِ القُوقازِ الذين اشتَهروا منذُ القِدمِ بنزْعتهم إلى الحرية وعدمِ خُضوعهم خضوعًا فعليًا لسُلطانِ الشاهِ ، كما أنهم لايَعترفون بسُلطة القيصر عليهم ،

لهذا كانوا يقطعون طريقَ القوافلِ التى تخترقُ هذه الولايةَ غرباً أو جنوباً حتّى أصبحَ السفرُ فيها لا تُؤمَنُ عواقبهُ .

وفى عشيّةِ أحدِ الأيام وقبلَ أن تغيبَ الشمسُ وصلْنا إلى وادٍ ممرع يُرويه أحدُ الينابيع ؛ ولما كان التعبُ قد أخذ منّا مأخذَه رأى أصحابى أن يقضوا المساءَ فى هذا المكان فأنزلت القافلةُ رحالَها وكانت عدتُها نحوَ مائتين وخمسينَ رجُلاً ، وتخيّرتُ صخرةً فى وسط الوادِى استخدمتُها كمنبرٍ للخطابة أجمعُ حولَهُ رجالى ؛ وبصوتٍ كزئيرِ الأسد تجاوبَتْهُ أركانُ الوادِى وقفتُ فيهم خطيباً وأنذرتُهم بصفتى دليلَهم المختارَ بأن هذا المكانَ لا يصلُح للإقامةِ لأنه عرضةٌ لهجوم هذه القبائل الجبليّةِ المسلّحةِ ؛ التى تمضى جماعاتٍ جماعاتٍ وعلى رأسِ كلٍّ جماعةٍ قائدٌ مدجّجٌ بالسّلاح يسيرُ فى مُقدمتهم وهو مُتنكّرٌ فى زىّ امرأةٍ. ثم إننى منحتُ رجالَ القافلة ساعةً ليتشاوروا ويقرّروا إما مُواصلةَ السّيْر معى أو البقاءَ فى هذا المكانِ .

ثم إننى تركتُ المُعسكر يتبعنى اثنان من رجالى الخلصاء وذهبْنا باحثِينَ عن مكانٍ آمِنَ فى بطن هـذا الوادِى ، فارْتقيْنا مُرتفعاً صخريًّا يصل سلاسلَ الجبالِ القريبة بأكوام متناثرة من الصُّخور ، لهذا كان من السّهل الدفاعُ عنهُ إذا هاجَمهُ الأعداء . فلمّا عُدنا إلى المُعسكَرِ وجدْنا جماعتنا قد أوقَدوا النارَ وأعدُّوا المواعين لطهْىِ العَشاء ، فارْتقيْتُ منبرَ الخطابة مرّةً ثانيةً فى هدوء وقد شاعَتْ فى وجْهى ابتسامةٌ ساخرةٌ وعرضتُ عليهم أنْ ينسحِبوا من هذا المكانِ فى الحالِ

إلى رأس تلك الصخرةِ حيثُ السّلامةُ وحَيْثُ ماء النَّبْعِ وفيرٌ، فمن رضى بقيادَتى دعوته أن يتبعْنى، ومَن أبَى إلّا أن يقبَعَ فى مكانِهِ فهو وشأنُه.

وما إن انتهيْتُ من كلامى حتى تصاعَدَتْ من المُعسكَرِ جلبةٌ وضوضاء حتّى إذا سكَنَتْ لم أَجِدْ حوْلى إلّا أربعينَ رَجُلاً من خِيارِهِمْ.

أمّا بقيّةُ الجماعةِ وهُم مائتانِ على الأقلّ ففضّلوا البقاء حيث كانوا. فلمّا ارتقَيْنا إلى قِمّةِ الصّخرةِ وطَلَعَ القمر ألْفَيْنا ذلك المُعسكَر من تَحتِنا وقد بدا فى ضوء القمر رائعًا بديعًا.

وما إن انقضت بُرهة حتى طرقَ آذاننا صِياحٌ وزعيق ونداء كما يحدُثُ إذا خاضَ الجنودُ الحمرُ حربًا أو قاموا بِهُجومٍ مُفاجئٍ على عدُوّ، فتجمّعْنا على حافة صَخرتنا المنيعةِ وأبْصرنا من مكاننا المرتفعِ جماعةً من قُطّاعِ الطُّرقِ يشنُّون هُجومًا خاطِفًا على مُعسكَرِ اولئك النّائمينَ فى بطنِ الوادِى وهم أقلّ منهم عددًا بكثير. ولم تستَمِرّ الموقعةُ بين رجالِ القافِلة وقُطّاعِ الطَّريقِ إلّا وقتًا قصيرًا انتهتْ بقتل الكثير من رجالِ القافلةِ وأُخِذَ مَن بَقِىَ منهم أسيرًا. لقد كان عِقابُ هؤلاء سَريعًا ولكنّه كان عِقابًا فظيعًا رهيبًا. ومرّ بخاطرى فى تلك البُرْهةِ أنْ أنْدَفِعَ لتخليصِ هؤلاء الأسْرى ولكنى وجدت أن كل مُحاوَلَةٍ لابُدّ وأنّ مصيرَها الفَشَلُ، وإن هِىَ دلّتْ على شىء فعَلَى الْحمقِ والطيش، لهذا أجْمَعْنا الرأىَ على الانتظار فى مَكاننا حتّى مطلَعِ الفجْر.

فلما كان اليومُ الثّانى عاوَدْنا المسيرَ، وكان طريقُنا بجانبِ مكانِ المَوْقِعَةِ التى جرت فى لَيْلَتِنا الذّاهِبَة فوجَدْناهُ مهجُوراً، وقد رأيتُ من أَصالَةِ الرّأْى أن نَخْتَفِىَ على نسق قطّاع الطُّرق فى زىِّ النِّساءِ ففعلْنا، وسرتُ فى مُقَدّمَةِ الجَماعةِ حتّى إذا انحرفْنا قليلاً عن مَكان المعركة وجدْنا قافلةً من الخَيْلِ على راسِها ثلاثةٌ من الشّراكِسَة، وقد رُبِطَتِ الجيادُ الواحدُ منها إلى الآخَر، وكانتْ لا تقلُّ عن سِتّين فَرَسًا. وما إن رآنا الشّراكِسَةُ حتّى ركِبوا جيادَهم وأَقْبَلُوا علَيْنا على عَجَلٍ وقد كانتْ ملابِسُنا سببًا فى غَوايتِهم.

نصحْتُ جماعتى بأن يلتزموا جانبَ الهدوء فلا يُحدِثوا صَوْتًا ولا يَسْتخدموا بندُقيّة فتبدو حقيقتهُم؛ حتّى أقبلَ هؤلاءِ الشّراكسة بوجوه ساخرةٍ مُطمئِنّة، وما إن اقتربوا من رجالِنا المتقنِّعينَ فى زىّ النساء حتى أنفذَ كلٌّ واحدٍ منهم خنجرًا فى ظهرِ واحد من هؤلاءِ المُعتدِين، فسقط ثلاثتهم على الأرض دون أن يحدثوا صَوْتًا أو يحاوِلوا المقاومَةَ. ثم وثَبْنا على تلك الخيولِ نُسابق بها الريحَ، وكان أصحابُها فى تلك السّاعَة يتقاسمونَ الغنائِمَ الّتى نَهَبوها بالأمسِ، وما هِىَ إلّا لحظاتٌ حتّى كُنّا على مسافةٍ بعيدةٍ من الأعداء. ثم توقّفنا بَعدَ قليلٍ عند جَدْوَلِ ماءٍ لِنَسْقِىَ هٰذهِ الخيولَ فخلَعْنا ملابِسنا النِّسوية وأَلْقَيْنا بها ونحنُ نَضْحَكُ ونَسْخَرُ.

لَم نَسِرْ طويلاً حتّى اعترَضَ طريقَنا جماعةٌ من حرَسِ الحدودِ الإيرانيّةِ الذين أَخذوا يسألونَنا عن غايَتِنا وعن الغَرَضِ من هذه الرّحلة. وما إن أعلنْتُ لهم اسمى

وبَيَّنْتُ لهم حقيقتى حتى استنتجُوا بالبداهةِ أنّى ذاهِبٌ لزيارةِ صاحبِ الجلالةِ الشّاهِ؛ فما كانَ منهم إلّا أن خلعوا قَلانِسَهُم عن رُؤُوسِهم احترَامًا وأخذوا يُغَمْغِمونَ باللُّغَةِ الفارسيَّةِ يُحيُّونَ صاحبَ السعادةِ البارون فون مونشهاوْزِن.

وبعد يَوْمَيْنِ وصَلْنا مدينةَ طهران ، غيْرَ أنّنا فُوجِئْنا بخبرِ سفر الشاهِ وجميعِ حاشيتهِ إلى شِيرازَ قبْل ذلك بأيّام ، فأسِفْتُ لذلك جدَّ الأسف .

وكان الترحابُ بنا بالغًاحدَّه في كلِّ مكانٍ نزَلْناهُ وكُنّا نُقابَلُ كما تُقابَلُ الملوكُ، وأخذت الجماهير تنضمُّ إلى رِكابنا حتى إذا كان اليومُ الثّامِنُ دخلنا مدينةَ شيرازَ على رأسِ مائة ألفِ رَجُلٍ ! وكانتْ أخبارُنا تصلُ إلى الشّاهِ يَوْمًا بعديَوْمٍ يُرْسِلها إليه رجالُ الحكومة كلما نَزَلْنا بلداً من البلاد، وكانتْ الجريدةُ الرّسْميّة لا تفتأُ تنشر نُتَفًا من هذه الأخبارِ كلَّ يومٍ .

فلمّا أن وصلنا القصرَ الصيفيَّ للشاهِ في شِيرازَ ألفيْنا الشاهَ في استقبالِنا وقد أحاط به رجالُ القصرِ وكبارُ رجالِ الدّولَةِ ؛ عند ذلك نَزَلَ عن جوَادِهِ ففعلتُ مثلَهُ، ثمّ اقترَبَ مِنّي واحتضنَني وأبْدَى شديدالسّرورِ لِلقائِي. ثمّ تفضّلَ جلالتُهُ فمَنحني الوسامَ الأكْبَرَ للشمسِ المصنوعَ من الذّهَبِ الخالصِ والمُحلّى بوَرْدَة شيرازَ التّي تغَنَّى بها الشاعرُ حافظٌ الفارسيُّ ؛ وفضلاً عن ذلكَ فإن جلالتَهُ أبْدَى نَحْوِى عَطفًا خاصًا ، فكان يخاطبنى خطاب النّدِّ للنّدِّ إذا ما اختلَيْنا سويًّا ولم يَسْمَعْنا أحَدٌ ، لأن ذلك تنازُلٌ عظيمٌ من جَلالَته .

الليلة الخامسة عشرة

أصْدِقائى ورِفَاقِى الأعِزَّاء :

رُبما كانَ ما سأَقُصُّهُ عليكم فى هذهِ اللّيْلة أعْجبَ ما مَرَّ بى فى حَيَاتِى الطّويلة من مُغامَراتٍ ومُحاوَلاتٍ، ولا أظُنّنى قد أفْضَيْتُ بهذا السِّرِّ قبل اليومِ ؛ ولكنّكم إذا رَجَعْتم إلى التّواريخ الفَلَكيّةِ الفارسية تجدون طَرفاً من ذلك العَمَلِ المجيدِ الذى قمتُ به إبّان وجودى فى تلك البلاد.

لم يَمْضِ على وُصُولى إلى شيرازَ بضعةُ أسابيعَ حتى اتيحت لِىَ الفُرْصةُ لِأقومَ للشّاهِ بمُهمّةٍ باهرةِ النّتائج؛ وأُريدُ أن أذكُرَ لكم بهذه المناسبة أنّ جلالةَ الشاهِ كانَ من بين ما يُعْنَى به دراسةُ الشُّئون الفَلَكيّةِ لاسيّما فيما يخصُّ القمرَ وأدواره . فحدَثَ ذاتَ ليْلةٍ وكانَ القمرُ بدْراً أنْ خرجْنا ـ وأعْنى بذلِكَ الشاهَ وأنا ـ فى حدائِقِ القَصْرِ وأخَذْنا نتجوّل بين العرائش التى كانتْ تفوحُ منها رائحةُ الوَرْدِ الشّذِيّةُ ، وكان الشاه يَنْشُدُ بعضَ خمريّاتِ الشاعر الشّاهانى حافظٍ المشهور، فإذا به يَصْمُتُ فجأةً ويُمْسِكُ بذراعى ويُشيرُ بإصْبَعه إلى القمرِ :

ـــ أتعرِفُ أىّ نوْعٍ من أنْواعِ الصّدأ هذا الذى يسوِّد وجه القمر ؟

فما كانَ منى إلّا أن أجبتُ :

— « لا ، لا ! يا صاحبَ الجلالةِ لَيْسَ الذى تَرَاهُ على وجْهِ القمرِ صدأ ؛ بل هىَ ظاهرةٌ نعرفُها فى بِلادِنا ونَدْعوها الْخُسوفَ وهى تحْدُث إذا كانَ القمرُ مُكْتمِلاً وسقَطَ ظلُّ الأرضِ على قُرْصِ القمرِ المُضِيء ؛ عِنْدَ ذلكَ .. »

فاعْتَرَضنى الشاهُ قائلاً :

— إذاحاوَلْتَ أنْ تكونَ رَجُلاً مُتفلْسِفاً فإنَ ذلِكَ يجعَلُكَ تبدو كالأحمق، فإنَّ ماتراهُ على وجهِ القمر هو صدأٌ حقيقيٌّ وهو يحدُث بسبب رُطوبة الطّبقاتِ الهوائيّةِ. وإذا أردْتَ زِيادةَ الإِيضاحِ فما عليْكَ إلّا أنْ تسْأَلَ الفلكيّ الشاهانىّ !



لم أجِدْ داعياً للسُّؤالِ والِاستفسارِ ، وإن كنتُ قضَّيْتُ الّليلةَ وأنا أفكِّر فى سؤالٍ آخَر . . ، هو كيف يتسنّى للإِنسان أنْ ينفذ بنورِ العِلْمِ والمعرفةِ إلى العقولِ المُظلمةِ التى خيَّمتْ عليها الخرافاتُ ؟

بَيْدَ أنّي هوّنْتُ الأمرَ على نفسي وقلتُ إن لكلِّ بلدٍ عاداتِها ، فإذا اعتقدَ أهلُ بلدٍ في أمرٍ من الأمُور فمِنَ المنطقِ السّليم أن نُحاوِلَ تقريبَ حقيقةِ هذه الظواهر إلى عقولِهِمْ .

وقَبْلَ أنْ ينْبَلِجَ الصَّباحُ تركتُ القصرَ وذهبْتُ باحثًا عنْ عريف السّفينة الذي جاء في صُحْبَتي إلى شيراز وقَضَيْنا ساعاتٍ طويلةً نُفكّرُ في ابتكارِ آلةٍ لسحبِ القمرِ إلى الأرضِ حتى يتسنَّى لنا تنظيفُه وتلميعُه .

فلما انتهينا من التفكير ، ذهبْتُ إلى القصْر وتشرّفْتُ بمقابلةِ جلالةِ الشاه وأخبَرْتُه في خُضوعٍ واحترامٍ بأنّ كلَّ شيءٍ قد تمّ إعْدادُه ولَنْ تمضي أيّامٌ حتى نتمكّنُ مِن سحْبِ القمرِ إلى الأرضِ لنَجْلُوَهُ مِنَ الصَّدأ .

فصاح الشاهُ فرِحًا :

— « يا لَكَ من رجُلٍ بارعٍ يا مونشهاوْزِن ! وإنّي لأُقْسِمُ لك بلِحْيَةِ النبيّ بأنك إذا فعلْتَ ذلِكَ لأرفعَنَّكَ في الحالِ إلى مرتبةِ الإمارَةِ .

وفي ذلكَ اليَوْمِ نفسِهِ أرسلْنا في طلَبِ ستّمائة عاملٍ نِصفُهم لجَلْبِ الرِّمالِ والنِّصفُ الآخَر لغرْبَلَتِهَا ، وقسّمْنا هؤلاء جميعًا إلى ثلاثِ جماعاتٍ يعْملونَ في إعْدادِ الرّمْلِ وغرْبلَتهِ غَرْبلَةً دقيقةً حتّى يُصْبِحَ صالِحًا لِجِلاءِ القمرِ وتلْميعِهِ ؛ وما إن انتهينا من ذلك حتّى بدأْنا نُقيمُ تلك الآلةَ التّي فكّرْنا فيها طويلاً والتي ستكونُ كافيةً لجذبِ القمرِ إلى الأرض ، وبعد أربعةَ عشرَ يومًا بعد تاريخ ذلك الخسوفِ

بدأنا فى استخدام هذه الآلة ، وبينا كان العالمُ المتمدِّنُ تجتاحه الشكوكُ بسبب اختفاء القمر بضعة أيام – وكان ذلك موعد ظهور الهلال الجديد – كنا فى أثناء ذلك فى مدينة شيراز قد جذبنا القمرَ وأنزلناه من مكانه ، فوجدنا بالفعل أكوامًا من الصدأ تغطّى وجهه، فعملنا على دعكها وتنظيفها وجلائها حتّى عاد وجهُ القمر مُضيئًا مُتلألئًا كما كان .

ومُنذ ذلكَ الحين أصبحت العادةُ أن يُفعَل بالقمر ذلكَ كلّ أربعة أسابيعَ .

...

وإنى أستميحُكُمْ يا أصدقائى عُذرًا إذا أعدتُ عليكُمُ القولَ لأذكِّركم بأنى مُنِحتُ أسمَى الأوسمةِ أثناء وُجودى فى بلاد إيران ، وفضلاً عن ذلكَ فإنَّ الشاهَ أهدَى إلىَّ (كمظهرٍ من مَظاهر شكرهِ وتقديرهِ لى عندَ سفرى) فرسًا بارعةً استخدمتُها بعد ذلك عشرين عامًا ولما ماتت حنَّطتها ، وكانتْ هذه الفرسُ تُسابقُ الرّيحَ فى عدوها وكنتُ إذا خرجتُ للزيارةِ بعد الظُّهرِ أقطعُ بها ثلاثين أو أربعين ميلاً دون أن تتعبَ ، وحدثَ مرّة أن كنتُ أتبعُ أرنبًا بريًّا أخذ يعدُو فوق الحقول حتَّى اندفعَ إلى الطَّريق العام حيثُ كانتْ عربةٌ تُقِلُّ سيِّدتيْن جَميلتَيْن، فحجبتِ العربةُ عنِّى الأرنبَ ، ولكنَّ فرسى الّتى كانت مُندفعةً كالبرقِ حملتنى معها فألفيتُ نفسى وجهًا لوجْهٍ أمامَ نافذةِ العربةِ المفتوحةِ ، حتَّى لم أجدْ وقتًا لرفعِ قُبّعتى – كما تقضى بذلك التّقاليدُ – وكم أسفتُ لذلك جدّ الأسفِ !

وحدَثَتْ لى مرّة حادثةٌ لطيفة مازلتُ أذكُرها إلى اليوم . وذلكَ أنَّ أحدَ رفاقِ صِباىَ ، وكنتُ لم أرَهُ مُنذُ سنين طويلةٍ قابلَنى ذاتَ يَوْمٍ مصادفةً وهو عائدٌ إلى المدينةِ من سوقِ الحبوبِ التى كثيراً ما يستورِدُها لأنه ورثَ طاحونةً عن أبيه .

ولا أظنُّكُم تجهلونه فهو «وِليَمْ مِلهوبر» الرّجُلُ البدينُ . كنّا إذ ذاكَ فى ساعةِ العَشيّةِ فلما نَزَلَ «مِلْهوبر» من عربتِهِ أخذ يترنّحُ فى مشيتِهِ حتَّى إذا فاجأتُهُ بالتّحيّةِ ولم يكنْ مُنتبهاً لوجودى بسببِ العتمةِ صاحَ صيحَةَ فزعٍ وهو يقول: «مَنْ الذى أرى أهُوَ أنتِ البارونُ فون مونشهاوزن ، الذى ماتَ مُنذُ زمَنٍ بعيدٍ؟».

فأجبتَهُ بحنقٍ : « إنّى كما ترانى أمامَ عينَيْك حَىٌّ أرزَقُ لم يُوارِنى التّرابُ بعدُ عن العيون . »

فأجابنى بقحةٍ :

— « نعم ، ومُنذ سبعةَ عشرَ عامًا رأيتُك بعينَىَّ هاتين جُثّةً هامِدَةً على فراشِ المَوْتِ وقد كنتُ حاضراً عندَمدْفَنِ «ديرو» ، وأذكُرُ أن كلّ طفلٍ من الحاضرين سُمِح له لتلك المناسبة بقطعةٍ من فطيرة الكريز مرشوشَةٍ بالسُّكّر - إن السُّوسَ ياسيِّدى البارون لا بُدّ وقد نخرَتْ عظامك مُنذ زمَنٍ بعيدٍ . »

فأجبته : « تمهّلْ يا وِليَمُ لأؤكِّدَ لك أنّى مازلتُ على قيْدِ الحياةِ . »

وما أن انتهيتُ حتى لَطَمْتُهُ لَطْمَةً قويةً ألقتْ به على الأرض ؛ وبعد ذلك

بأيّام كنتُ أسيرُ بجوارِ الطّاحونةِ ، فوجدْتهُ جالِسًا على مقْعدٍ يُسلى نفْسَهُ ، فابْتدرْتهُ قائلاً :

« أما زلتَ فى شكٍّ من وجودى ياولِيم أم تُراكَ فى حاجةٍ لأثبتَ لكَ ذلك مرّةً أُخرى . »

فقامَ الطحّانُ من مكانه وهو يرجونى ألّا أفعلَ . نعم كان من واجبى أن أستخدِمَ هذه الوسيلةَ القاسِيَةَ لأمْحوَ مِن أذهانِ الكثيرين شُكوكَهُمْ، ولأُقنِعَهُمْ بأنّى مازلتُ فى عالم الأحياء .

والآنَ عموا مَساءً ياأصدقائى ويا رِفاقى الأعزّاء؛ ألا فانعمُوا مساءً .

الليلة السادسة عشرة

للمرّة الأولى يصِلُ البارون إلى المجلس مُتأخّراً ، وما أنِ استقرّ به المُقامُ حتّى توجّهَ بكلامِهِ إلى الجالسينَ ، وقال :

إنّى أستميحُكُمْ عُذراً ؛ أولا لأنّى وصلت مُتأخِّراً ، وثانيةً لأنّى أجْلِسُ بينكم فى ملابِسِ الصّيد . وفى كِلْتا الحالتَيْنِ أعتبرُ هـذا الصّدْرىّ الذى ألْبسه مسؤُولاً ! فأنتُمْ تَروْنَ أنّه مصنوعٌ من الجِلْدِ؛ وعلى وجْهِ التّحقيق مصنوعٌ من جلدِ «بيكاس» ذلك الكلْبِ الذى كثيراً ماقصَصْتُ طرفاً من حكاياتِهِ عليْكم .

فقدْ حدَثَ في يوم من أيّام الأحَادِ إذْ خرجْنا للصَّيدِ، أن أُصيب هذا الحيوانُ المسكينُ بطلْقةٍ طائشَةٍ فبدلاً من أن يُصْرَعَ الأرنَبُ الذي كان يتْبعه پيكاس صُرِعَ هو نفسُهُ . لقد رأيتُ هـذه الفاجعةَ بعيْنَيّ وأنا على مسافةِ ثلاثينَ خُطوةً ، فلما وثبْتُ مفزُوعاً من مكاني رأيْتُ هذا الحيوانَ الصّديقَ يتلوّى من شدَّة الألم وينظر إليّ بعيْنٍ مُتوجِّعَةٍ ؛ ثمّ إنّه رفع قدمَهُ اليُسرى وكأنّه يودِّعُني، ثم أخذ يهتزُّ ويرتجفُ حتى فارَقَ الحياةَ .

ليس پيكاس يا أصدقائي ويا رِفاقي الأحبّاء إلّا كلباً ، ولـكنْ أيُّ كلبٍ هو ! وإنَّ كثيراً منـكم ليَعْرِفه معْرِفةً شخْصيَّةً ، لهذا لا أُريدُ أن أُطيلَ عليـكم الـكلامَ عنْهُ ؛ نعم ! ما هو إلّا كلْبٌ ولـكنَّه عندي أكثرُ من هـذا ، إذ لم أجِدْ له مثيلاً . وقد دفعني دافعُ الشَّفقَةِ والولاءِ إلى أن أُحنِّطه ، ولـكن لا ؛ إنّني أُريدُ أن يكونَ أقربَ إليّ من ذلك مكاناً ؛ لذلك صنعتُ مِن جِلْدِهِ هـذا الصّدْريّ حتى أحسّ بأنّي أحمِلُ له تذكاراً كلما خرجْتُ للصّيدِ .

إنـكم ترونَ كيفَ أن الدُّموعَ تترقْرَقُ في عيْنَيّ ؛ ولـكن أتدْرونَ ما حصَلَ ؟

عنْدما خرجْتُ للصَّيد للمرّةِ الأولى وأنا أرْتَدي هذ الصّدريّ مررْتُ بحقْلٍ من حقول البرسيم جثمتْ فيه جماعاتٌ من الطّيورِ البريّةِ، فما إن وقعتْ عيْناي عليها حتّى بَدأَ قلْبي يدُقُّ دقًّا عنيفاً . وكلّما تقدّمْت خطوةً إلى الأمامِ زاد هذا الخفقانُ

حتَّى كان عليّ أن أقفَ لكي أستجمَّ وحتى أسترجعَ أنفاسي المتقطِّعةَ . ثم إنني سرْتُ بخُطُواتٍ وئيدَة ولكنَّ ضرباتِ قلبي اشتدَّتْ وتوالَتْ حتى عجزْتُ عن المسير، وعلى حين فجأة انفلتَ زرٌّ من أزرارِ هذا الصِّدْريّ وانطلَقَ طائراً إلى مسافةِ خمسةَ عشرَ قدماً ، وفى تلك اللحظةِ هبّ سِرْبٌ من الطُّيور من مكانه ، فما كان منّي إلّا أن صوّبْتُ بندُقيّتي وأطلقْتُ النّارَ فسقط منها خمسةٌ ، فجمعْتُها ووضعتُها فى جراب الصيدِ وتابعْتُ سيْرِي .

وما ان ابتعدْتُ مسافة أربعين خطْوَةً حتَّى عاد ذلك الخفقانُ وعادَتِ الأزرارُ إلى الانفلات والطَّيرانِ وكان يحدُثُ ذلك كلّما اقتربْتُ من صيدٍ جديدٍ، لقد كنْتُ أحسُّ بصدْري مأزومًا وبقَلْبِي يكادُ يثِبُ من مكانِهِ ، وكان فى كلّ مرّةٍ ينقطعُ زرٌّ من هذه الأزرارِ ، ولكنّي بعد ذلك كنتُ أُصيبُ الهدَفَ بدقَّةٍ ، فجمعْتُ حوْلى كومَةً من الإوَزّ البريّ والقطا والأرانب .

وأنتُم ترَوْنَ أنّ هذا الصَّدْري مزيّنٌ بصفَّيْنِ من الأزرار، عُدَّتها أحدَ عشر زرًّا لم يبْقَ منها إلّا ثلاثة وسأعملُ على إصْلاحها من جديدٍ فى الأسبوعِ القادمِ ؛ فماذا تقولونَ فى وَلاءِ هذا الكلْبِ وإخلاصه حتَّى بعد موته .. نعم إنَّني فتًى بالغٌ راشدٌ ، ولكنَّ ذِكْرى هذا الكلبِ الأمينِ البارعِ ما فَتِئَتْ تحزفى قلبي من الحزنِ؛ وهاأنذا أرفعُ كأْسي تمجيداً لذكْراه .

. . .

دعونى أقُصُّ عليكم مُغامَرةً طَريفةً ! حدثَ مُنذ بضعِ سِنين أثناء زيارتى جزيرةِ صقلّية أن بركانَ « إتنا » قد ثارَ من جديد، وأخذ يرمى باللّهَب وبالأحجار المُنصَهِرَة حَوله. وكنتُ إذْ ذاك فى مدينة «قطانيا» وقد عقدتُ الصُحبةَ مع جماعة من السّائحين الإنجليزِ من رجالٍ ونساء، فخرجتُ مَعهم حتّى وصَلْنا إلى مكان يدعى « كازا انكليزىّ» أى البيت الانجليزىّ حيثُ قضينْا الليلَ . وفى الصَّباحِ اقْتَرَحَ علينا سائقو الحميرِ أن نقومَ برِحْلةٍ حوْلَ البُركان قبلَ أن يَهْدأَ ثورانُه ، ولكنْ بينما كانت الجماعةُ تنكُص على أعقابِها كنْتُ فى طَريقٍ مُنفرداً إلى رأسِ الجبلِ حتّى وصلْتُ إلى فُوهَةَ البُركانِ بعد ثلاثِ ساعاتٍ .

أخذْتُ أطوف حولَ الفُوهَةِ ثلاثَ مرّاتٍ ، ولعلّكم تتصوّرون ضخامةَ هذهِ الفُوهَةِ . لقد كان منظرُ الأوْدِيَةِ والبحرِ من هذا الارتفاعِ ساحِراً جذّاباً ، ولكنّ ذلك لم يَشغلْ بالى ، إذ كنْتُ أُفكّرُ فيما يَطويهِ هذا البُركانُ فى جَوْفِهِ ، ولم يَطُلْ بى التّفكيرُ حتّى عقدْتُ العَزْمَ على الوُثُوبِ فى هذه الهُوّةِ المفْتُوحَةِ !

ما كدْتُ أفعلُ ذلك حتّى أسفتُ لهذهِ المُجازفَة ، إذ وجدتُ نفْسى غارقاً فى بَحْرٍ من العَرَقِ، ونظَرْتُ حوْلِى فإذا بالْحُمَمِ تتناثَرُ هنا وهُنالك حتّى كاد يستحيلُ علىّ البقاءُ طويلاً ، وأخذَتِ الصُّخورُ الذائبَة والأحجارُ المُلْتهِبة تتراكَمُ حوْلى شيئاً فشيئاً حتّى كدْت أختَنِق فى وسطها ؛ ولَسْتُ أدْرى هل تكَيّفْتُ فأصبحتُ قادراً على احْتمالِ هذا الوهَجِ وهذه النّيرانِ فغلَبنى النُّعاسُ أم أنّنى فقَدْتُ وَعْيِى ؟



وبعدَ وقتٍ تنبَّهتُ من غفوَتى فوجدتُ نفْسى مُلقًى على الأرض وحَوْلى ضجيجٌ يكادُ يخرِقُ الأذنَ .

كنتُ كثيراً ما أسمعُ خليطاً من النَّقْرِ والخبْطِ والصِّياحِ والصُّراخِ ، فما إن قدْ أدرتُ عينَىَّ حتّى وجدتُ نفْسى فى صُحبةِ «فَلْكان» وجماعتِه «السَّيكلُوب» أولئك العمالقةِ ذَوِى العُيونِ المنْفَرِدَة الّتى تتوسَّطُ جباهَهُمْ .

والآن قد عَرفنا سِرَّ «فَلْكان» ذلك البطلِ الإلهيّ الذى جعَلَ من جَوْفِ بُركَان «إتنا» مَصْنعًا للحدادَةِ ، والذى أنكرَ حقيقةَ وُجودِهِ أكثرُ النَّاسِ من زمانٍ

بَعيدٍ. نعم إن الرَّجُلَ الذى يَضربُ فى الأرض مُسافراً تتَهيَّأُ له الفُرصة ليَرَى عَجَائِبَ الدُّنيا، لهذا السَّبب فاضَتْ نفْسى بالأفكار حتى عمَدْتُ إلى أن أقول شِعْراً بدأته هكذا: «إنَّ الرَّجلَ الذى يَهْوى الأسفارَ يجوزُ له أن يَرْوِىَ القِصَصَ..» ولكنَّنى لم أستمرَّ طويلاً فى قَرْضِ الشِّعْرِ.

وإنَّكم لتتَصوَّرون يا أصدقائى مبلغَ الدَّهشة التى غمَرَتِ الأب ڤلكانَ العجوزَ وأتباعَه العمالقةَ عند ما اكتشفوا وُجودى بينهم وبعد أن فَحَصَتْنى عُيونُهم حجل ڤلكانُ إلى صُندوقِه وأخرجَ دُهْنًا ورباطًا وأقبلَ علىَّ يضمِّدُ جراحى وحروقى، ولا شكَّ فى أن دواءه كان ساحراً عجيبًا لأنه ما إن مسحَ به جلدى المحترقَ حتَّى اختفَتْ آلامى فى الحالِ، ولم يكنْ علاجه ساحراً فحسبُ بل إنه ضمَّد الحروقَ التى أصابت ملابسى نفسَها!

وجاء أحدُ صغارِ «السيكلوب» وأحضر قَدْراً من ماء البحرِ الدافئ حتَّى أستكملُ نظافتى؛ كما كنتُ موْضِعَ رعايَةِ السَّيدةِ «ڤينوس» زوْجَة مُضيفى المحترم وهى التَّى مضى عليها بضعُ آلافٍ من السنينَ وما زالتْ محتفظةً بجمالها.

وإن أسفتُ على شىء فذلك أنَّى لم أسألْ عن سرّ مسألتين: الأولى من أىّ مصنعٍ من مصانعِ الأدويةِ استُحْضِرَ هـذا الدَّواء العجيبُ الذى يشفى الحروقَ، وإذا فرضنا أنَّ ڤلكانَ نفسَهُ هو الذى يعدّ هـذا الدواء فما هِىَ عناصرُ تركيبهِ؛ والمسألةُ الثَّانيةُ تخصُّ السيدةَ ڤينوس وأنواعَ المساحيقِ الَّتى تستخدمُها للاحتفاظ

بجمالها ؛ إذ لى عمّتان يعنيهما الجوابُ على هـذا السُّؤالِ ولا شكَّ أنهما يحفظانِ لِي هذا الجميلَ إذا أفضيْتُ لهما بسرّ « ڤينوس » .

نعم لو تَسنَّى لِي أنْ أعرفَ حقيقةَ هذيْنِ الدواءيْنِ لـكنتُ أصبْتُ من ورائهما ثروةً عريضةً !

ولِي أنْ أقولَ بصفةٍ عامّةٍ إنَّ الزَّوجينِ كانا رفيقيْنِ بى عَطوفيْنِ علىّ ، إلَّا أنَّ « ڤِينُوسَ » كانت فى بعضِ الأحايينِ تَحْدِجُنِي بنظرةٍ ساخرةٍ وتدعونى بالدودة الأرضيةِ الحقيرةِ ، وكان هذا التحقيرُ يؤلمُنِي كثيراً . أمازوجُها « ڤلكان » فقدْ طاف بى بين أرجاءِ مملـكته السُّفليةِ وراحَ يُعرِّفنى بأقسامِها وأركانها حيث « السَّيْـكلوبُ » يَطرُقونَ الحديدَ ويصنعُونَ منه صنوفَ المُنتجاتِ التي نستخدمها فى حياتنا اليومية من المحاريثِ وأدواتِ الفِلاحَةِ وعُددِ النجارةِ ومن الأسلاكِ والصّفائح الحديديةِ ومن الأسلحةِ والسيوفِ والدروعِ .

وقد أبصرْتُ عشراتٍ من الطُّرُقِ الضَّيقةِ الّتى تنْعطف شمالاً ويميناً والّتى كانَتْ تنتَهى بعد خطواتٍ قليلةٍ إلى أبوابٍ مُوصَدَةٍ من الفولاذِ السّميكِ ، كُتِبَ عليها بحروفٍ مُضيئةٍ « إلى ڤِيزُوف ! » أو « إلى هِكْلا ! » كما كُتِبَ على بعضِها أسماءِ براكينَ ميتةٍ ثارت يومًا وخَمدَتْ ؛ فعلى بابٍ من هـــذه الأبوابِ كُتِبَ « استرَامبُولى » وتحت هذا نُقِشَ بثمانى عشرةَ لغةً مختلفةً « ممنوعُ الدخولِ » .

فسألتُ ڤلكان عنِ المكانِ الّذى يوصِّلُ إليه هذا البابُ ؛ فأجابنى فى هدوء :
« إنَّ هذا البابَ يوصِّلُ إلى مصنعٍ من المصانعِ الكُبرى الّتى تشتغِلُ بشتَّى المُنتجاتِ الحديديةِ ، وليسَ لكائنٍ مَنْ كانَ أن تقعَ عيْناهُ على ما فيه ، لهذا كان الدخولُ إليه مُحرّمًا . » ثمّ أخذَ يتمتِمُ بكلامٍ غيْرِ واضحٍ تمامَ الوضوحِ ، بيْدَ أنّى تسقّطْتُ بعض كلماتٍ منها « المصائدُ الفولاذيةُ والمدافعُ الأتوماتيكيةُ » .



وفى ذلك المساء نفسِهِ سألتُ السّيدةَ ڤينوس عمّا إذا كانت قد زارتْ «إسْترانبُولى» ، فأجابتْنى نفياً ؛ ذلك لأنَّ الدخول إليه ممنوعٌ ، وكلُّ ما تعلمُهُ أنَّ زوْجَها قد أعدَّ هذا البركانَ لأعمالِهِ الخاصّة فمِنْ بيْن ما يصْنَعه فى هـــذا المكانِ صفائحُ الرّعْد للأب « زيُوس ».

ثم إنَّ الحديثَ أخذ يتفرّعُ بنا حتى عوّلْتُ على أنْأنتهز الفرصةَ لأكْشِفَ سرّهذاالمصنع ولأتثبتَ ممارَوَتْهُ «ڤينوس» وقدواتتْنى الفرصةُ فعلاً فى اليوم الثّانِى إذْ نشب نزاعٌ بين العُمّالِ فشُغِل الأبُ ڤلكان بفضِّه ، عند ذلك خرجتُ متلصّصاً وتسرّبتُ إلى ذلك البابِ الّذى حُجر على النّاس دخوله ففتَحْتُهُ بشىء من الجهد إذ لم يكنْ مُوصَداً . وما كدْتُ أفعلُ ذلك حتى أصمّنى صوتُ الرّعدِ القاصفِ ، وعند ماتلفّتُّ إلى جُدرانهذا الدهليزِ وجدتُ أنّه مُغطًّى بلافتاتٍ مُضيئةٍ لتحذير الداخلينَ مكتوبةً بثمانىعشرَةَ لُغةً هـذا نصُّها : « هُنا مخازنُ المدافعِ الأوتوماتيّةِ والمصائدِ الفولاذيةِ .

وأخذَت تعاودُنى أفكارٌ مُتناقضةٌ واستولَتْ علىّ الحيْرةُ، ولم أدرِ هلْ مِنَ العقلِ أن أُتابعَ السّيْر فى هذا الدهليزِ الّذى يضيئهُ برقٌ خُلّب ؟ ولكنْ قبْل أنْ أصِل إلى رأىٍ حاسِمٍ أحسَسْتُ بِيدٍ تحملُنى بعُنفٍ من ياقةِ معْطفى وتنهالُ علىّ ضرباً ولم تتوقّفْ حتّى سَمِعتُ صوْتَ الأبِ ڤلكان الّذى عادَ إذْ ذاك بعد فضّ المُشاجرةِ وهو ينادى : «ساتْ سُوبَرْ كاَى»ومعنى ذلك« نالَ كفايته»فخَلّصْتُ

نفسي من هذا المارِدِ ، إلّا أنّه دفعَني إلى هُوّةٍ دامسةِ الظّلام وهو يتبعُني باللّعنات صائحًا : « أيُّها الإنسانُ النّاكِرُ للجميل عِقابًا لك على نسيانِكَ الفضلَ سأُرسِلُ بِكَ مرّةً ثانيةً إلى عالَمِ الأحزان الّذى جئتَ منه ! »

وأخذت أهْوِى وأهْوِى فى ظلامٍ لا نهايةَ لهُ ، وظللتُ فى هـذا الهبوط ساعةً أو ساعتيْن من الزّمان ولا أشُكُّ فى أنّى فقدتُ شُعورى إبّانَ هذه الرِّحْلة فلَمْ أدْرِ كم قضيْتُ من الوقت وكم كانتْ سُرْعتى فى الهبوط . وعلى حينِ فَجْأةٍ عُدْت إلى صوابى وأحسَسْتُ كأنّى أسبَحُ فى ماءٍ باردٍ، ولمّا فتَحْتُ عينيّ وجدْتُنى فى بحرٍ غَمرَتْهُ الشّمس فانبطَحْتُ على سطْحِ الماءِ الذى حملَنى دون أنْ أسْتخْدِم فنًّا من فُنون السّباحة التى أُجيدُها .

ولـكن إلى أين أنا ذاهبٌ ؟ وفى أىّ اتّجاهٍ أسبَحُ ؟ إنَّ أحداً غيْرى ليُسْقَط فى يده إذا ما رأى نفْسهُ وحيداً فريداً بَيْن الماء والسّماء ، وكانَ الماء فوْقَ ذلِكَ شديدَ البُرودةِ بل كانَ مثلوجًا . ثم إنّى بعْدَ ذلك تبيَّنْتُ فى الأفق جبلاً من جبال الثّلج العائمةِ يَبْعُدُ عن مكانى نحواً من خمسةِ أميالٍ فاندفعْتُ إليه وأخذْتُ أَسبَحُ حتّى وصلْتُ إلى حافتِهِ فتملّقْتُ به وأخذتْ أتَسلّقُه بجُهْدٍ شديدٍ حتّى وصلْتُ إلى قمّتِهِ ، فلمّا ألْقيتُ بنظَرى إلى الجانب الآخر اكْتشَفتُ قاربًا يقفُ إلى جانبِهِ خمْسَةٌ من الوطنيِّين بصُحْبَتهِمْ رجُلٌ أبيضُ وهم مُنهَمِكون فى بعْض شُئون الصَّيْدِ .

أخذتُ أُصيح بأعلى صوتى لأَسْتَرْعى انْتِبَاهَ هؤلاء الصيَّادين ثم انطرحْتُ على السفحِ المقابِلِ لهم وانزلَقتُ بسُرْعةِ الرِّيحِ حتَّى وجــــدْتُ نفسى على غَيْرِ بَعيدٍ منهم، فأَقْبَلوا علىّ وحملونى إلى قاربِهِمْ فعرفت أَنَّ الرّجُلَ الأَبيضَ هولَنْديًّا غرِقَتْ سفينتُهُ ولم ينْجُ منها أَحدٌ سِواهُ، إذِ اصطدَمَتْ بصَخرةٍ فى جزيرةٍ مهجورةٍ من جَزائِرِ المُحيطِ الهادى.

وهكذا عرفت أَنّى فى البحر الجنوبى.

ثم إنَّ الحقيقةَ تـكَشّفتْ لى: إذ يكُنْ ذلك الدهليزُ الّذى مرقتُ منهُ إلّا أُخدودًا أَرضيًا يشُقّ الْكرَةَ الأَرضيَّة. وكم أَنا آسِفٌ لأَنّى لم أَتبيّنْ معالِمَ الطَّريقِ الذى مرزْتُ فيه.



وإذا حدثَ أنَّ أحداً منكم وثَبَ فى فُوهَةِ بُركانِ « إتْنا » واندفَعَ فى ذلك الأُخدودِ الذى يمر بمركزِ الكرَةِ الأَرضِيَّةِ ، فإنِّى أنْصَحُهُ أن يُدَقِّقَ النَّظَرَ حوالَيْهِ - إذا لَم يُصَبْ بإغْماءٍ أو بفقْدِ شعوره - لأنه سوف يستمْتِعُ بأرْوَعِ المَشاهِدِ الَّتى لا مثيلَ لها ، والَّتى مع الأَسفِ لَم أَستطِعْ أنْ أَجْلوَ غرائبِها بنفسى .

والآنَ أنعِمُوا مساءً أيُّها الأصدقاء !

الليلة السابعة عشرة

بينما كنّا في طريق عودتنا إلى الجزيرة المجهولة في المحيط الجنوبيّ والتي حدّثتكم عنها، قصّ عليّ رفيقي الهولنديّ شيئاً من غرائبها. هذه الجزيرة يدعوها أهلها « تيهات ليباتي» ويحكمها أمير طيّبُ القلب إلّا من عادة غريبة هي حبّه الشّديد لأكل لحم الأجانب مشويّاً بعد أن يُسمّنهم شهراً كاملاً يعيشون خلاله على فاكهة المحيط الجنوبي وعلى صنوف من اللّوز. وكان ذلك الهولنديّ أحد ضحاياه فبقي في هذه الجزيرة لا يُطعَمُ إلّا الفاكهة واللّوز حتّى إذا اقترب موعد شيّه وأكله حدث أن أمطرت السّماء يوماً، فتساقط على رأسه نوعٌ من الفطائر الصّغيرة التي أكل منها حتّى شبع، فلمّا سمع الأمير بذلك غضب غضباً شديداً وأمر أن يُسمّن « يوهان فان ويزل » من جديد شهراً كاملاً حتّى يحين موعد افتراسه.

فلمّا سمعتُ ذلك منه قلتُ له متهكّماً :

— « تمهّل يا يوهان، إذ لستُ بالذي يُصدّقُ كلامك، فابحث عن غيري قد يؤمن بأن السّماء تُمطرُ فطيراً. فأنا ـ إذا أردتَ أن تعلم ـ البارونُ المشهور فون مونشهاوزن الذي طوّف حول الأرض ؛ ومع ذلك لم أرَ أن السّماء في أيّ مكان تُمطرُ فطيراً . »

فأجابني الهولنديّ مؤكّداً : «ولكنّنا في « تَيهات لِيباتي» كثيراً ما رأينا

السّماء تُمْطِرُ فطيراً لا سيّما فى الصّيفِ، فعلى رُؤوس جبالِ هذه الجزيرةِ ينبتُ نوْعٌ من أشجار الخبزِ له ثمرٌ يُشبه فى لونه وطعْمهُ الفطائرَ المحشُوَّةَ باللّحْمِ، فإذا هبّتْ ريحٌ عاتيةٌ حملَتْ هذه الثّمارَ ونثرتْها على أرضِ الوادِى .

وقد تحقّقْتُ هــذا بنفسى فوجدتُ أن الهولنديَّ لم يَعْدُ الواقعَ، وأنّ علماء النّبات مازالوا يجهلون هــذا النّوْعَ من شَجر الخبز الذى يُطلِقون عليْهِ إلى اليومِ اسم « أرْتوكارْبس إجْنوتَسْ » وهو الاسمُ العامُّ لأشجار الخبز .

وبينما كنّا فى هــذا الحديثِ اقْتَرَبنا من شاطئ الجزيرةِ حيثُ أبصرْتُ الأميرَ جالساً وحوْلَه وُزراؤه، فما إن نَزَلْنا إلى الشّاطئ حتّى قدّمَنى الهولَندِىُّ إلى سُموّه بعد أن مَنَحنى ماشاء من الألْقاب ؛ وأجاب الأمير على ذلك بلَفْتَةٍ رقيقةٍ ثم إنّه همَسَ إلى وزيرهِ الأوّلِ وقال: «فلْتبْدأْ توّاً بعلْفِهِ وتسمِينِه.» نعم ياله من استقبالٍ لطيف!

وما إن خطَوْتُ بضعَ أقدامٍ حتّى حدثَ أمْرٌ عجيبٌ؛ فما كان يدورُ بخلدِى أنّ شُهرتى التى طبّقتْ آفاق العالَمِ المُتمدّن قد وصلَتْ إلى هذه الجزيرةِ التى مازالتْ غير معرُوفة عنــد الجغرافيّين ؛ وذلك أنّنى بينما كنتُ فى طريقى إلى قصر الأميرِ ـ الذى هو فى الحقيقة كوخٌ فطرىٌّ ـ إذا بالأشجار التى تُحيطُ به تحنى رُؤوسها، وكأنّها تقولُ : « أهلاً بكَ يا صاحِبَ السّعادةِ فون مونشهاوْزِن !

لقد كان لذلك أبلغُ الأثر عند الأمير فهَمَسَ فى أُذُنِ وزيره قائلاً : « لا تَتعجّل بتَسمِينِ مونشهاوزن » ولمّا فسّرَ لِى الهولَنديّ مَعنى هذا الهمس سُرِّىَ عنّى . .

وبعد أن سِرْنا مائة خطوةٍ من قصرِ الأمير مررْنا بصفّيْنِ من الأشجارِ عِدتُها اثنتاعشرةَ شجرةً محمّلةً بنوْعٍ من الفاكهة مُستديرٍ فى حجمِ رأسِ الطِّفلِ ، ومن أغصانِ الشّجرات الثّلاث الكبرى تدلّى ثلاثُ رجالٍ مُعلّقين من أعقابِهِمْ، وكان مَشهدهم عجيباً . ولمّا سألتُ عن حقيقتِهِمْ وسببِ عِقابِهم هذا العقابَ الصّارمَ ، أخبرنى « يُوهان ڤان ويزل » بأنّ هؤلاءِ الرجالَ كانوا قد رَحَلوا من الجزيرة للسِّياحةِ والنزهة فلمّا عادوا إلى جَزيرتِهم راحوا يَصِفُون من الأماكن والبلادِ ما لم تَرَ عيْنٌ ، ويقُصُّون من الرّواياتِ ما لم يُصَدِّقه أحدٌ ، لهذا نزل بهم هذا الجزاء. ولو أن هذا العِقاب صارمٌ شديدٌ ، ولكنّ أولئكَ السّائحين الذين لا يلتزمون جانبَ الحقيقةِ فى رواياتهم يستحِقُّون مثلَه وزيادةً. لهذا كم أتمنّى أن يُعاقبَ الكذّابون بشَنقهم حتى تسودّ جُلودُهم !

والحقُّ يُقال إننى لم أمكُثْ طويلاً فى « تِنهات لِيباتى » لأتحقّقَ صِحّةَ رواياتهم ، وفضلاً عن ذلك فإنّ فكرةَ الحياةِ على الفاكهةِ والجوْزِ وإعْدادِ نفسِى لِوَليمةِ شِواءٍ فاخرةٍ ليس بالأمر الذى يَسْتَهْوِى النّفسَ ، لذلك ما واتَتْنى الفُرْصةُ فى مَساءِ ذلكَ اليوم نفسِه حتّى خلَوْتُ « بيوهان ڤان ويزل» وأفصَحْت له عن عزمى على الهربِ من الجزيرةِ فى أقربِ وقتٍ ، فطفحَ وجهُهُ غبطةً وسُروراً ؛ ولكن سُرعانَ ما أفضى لِى بخبيئةِ أفكارِهِ فذكَرَ لِى والأسى يملأ نفسَه أنّه لا يَعْرفُ أيْنَ مكانُ هذهِ الجزيرةِ من المُحيطِ فهىَ لم تُكْتَشَفْ بَعْدُ، لهذا ليس لها مكانٌ على

الخرائطِ الجغرافيّةِ . وعلى ذلك فمن المستحيلِ أن نعرفَ الاتجاه الذى يوصّلنا إلى أوربا إذا حانتْ لنا فرصةُ الهربِ .

أمّا أنا فلمْ أحاولْ أن أعترضَ عليهِ ، إذْ أنّهُ سيّانِ عندى أن نغرّبَ أو نشرّقَ ما دمْنا لا نعرفُ إلى أينَ نذهبُ ، وكلُّ ما نرجوه أن يواتينا الحظُّ فنقعَ على أهلِ بلدٍ من المتمدّنين يدلّونا على الطّريقِ الذى نسلكهُ . ثم إنّى وجدتُ من الضّروريّ أن نبنى قاربًا ننحتهُ من جذوعِ الأشجار ؛ وهـذا يتطلّبُ أن نعرفَ صنوفَ الأخشابِ التى تنبتُ فى الجزيرة والتى تصلحُ لهذه المهمّةِ ؛ ولم يكن الهولنديُّ صاحبَ معرفةٍ بفنّ النّجارةِ وكلُّ ما دلّنى عليـــه أن الأشجارَ التّى شنقَ عليها الـكذّابونَ الثلاثةُ ذاتُ ثمرٍ أشبه شىءٍ باليقطينِ الأجوف الذى إذا ما جفّفتْهُ الشّمسُ أصبحَ كالبالونِ رقّةً وخفّةً فتطيرُهُ الرّياحُ فى الفضاء .

ثم طرأت علىّ فـكرةٌ قابلها الهولنديُّ باغتباطٍ وفرحٍ إذ اتّفقْنا على أن ننتظرَ جفافَ هـذه الثمار بعد أيّامٍ ، فنصنعَ منها عقدًا نطيرُ به . وفى أثناء ذلك أعددْنا قدراً كافياً من الطّعام لنحملَهُ سرًّا فى جيوبنا ، حتّى إذا جاء الموعدُ ربطتُ من هـذه اليقاطين الجافّةِ نحو ثمانيةٍ أو عشرةٍ حولَ حزامى ؛ وصنَع « يوهان » مثل ما صنعْتُ ؛ فلمّا هبّتِ الريحُ الدافئةَ ارتفعنا فى الهواء ودفعتْنا إلى البحرِ ، ولـكنّنا سرْعانَ ما افترقْنا . ولمّا تلفّتُّ خلْفى ألفيْتُ « يوهان » وقد أخذ يهبطُ شيئًا فشيئًا إلى سطحِ الماء حيثُ التقطَتْهُ سفينةٌ عابرةٌ . وقد علمْتُ بعد ذلكَ

أنه عادَ إلى بلَدِهِ وعُيِّنَ أميناً لمتْحَفٍ من متاحفِ التّاريخِ الطّبيعيِّ في مدينةِ «أمستردام» أو « لِيدن » .

أمّا أنا وكانت رِحْلَتي أشدّ وأشقّ من ذلك فلمْ يقِرّ لي رأيٌ على الهبوط في عرضِ البَحْرِ أو التّعلُّقِ في الفضاء تتقاذَفُني الأهواء ، إذْ أنّ إعْصارًا هَبَّ بعد ذلك فحمَلَني على مَتْنِهِ ثلاثةَ أيّامٍ وثلاثَ ليالٍ وهو يدورُ بي بحركةٍ لَوْلَبِيَّةٍ ، فكان من حُسْنِ حظِّي أنّ الطّعامَ الذي خَزَنْتُهُ في جُيوبي أنقذني من الموت، ولكن انْتَهى بي الأَمرُ إلى أنْ فَقَدْتُ وعْيي، فوَجَدْتُ نَفْسِي بعد ذلك مَطروحًا على سطْحِ الماء فأخَذْتُ أسْبَحُ حتّى كلّتْ ذِرَاعايَ ، وبعْدَ أن قطعْتُ نحواً من سبعةَ عشَرَ ميلاً بحَرِيًّا أنْقَذَتْني إحدى السُّفُنِ .

كانت هذه السّفينةُ فرطاقةً تركيةً . وفي الليلة الأُولى دعاني القبطانُ إلى غرفته التي اجتمع فيها كثيرٌ من الضُّبّاط والبَحّارةِ وسألني عن أمْري فقَصَصْتُ عليه ما شاهدْت في جزيرة « تِيهات لِينياتي» ورَوَيْتُ خبَرَ الإعصار الذي حَمَلني فأحْسَسْتُ بأنّ السّامعين بدأُوا يشكُّون في أمْري مع أنّ ماروَيْتُه كان خاليًا من التّزْويق ولم أزِدْ أكثرَ ممّا رويتُه لكم ؛ فلما انتَهيْتُ تلفّتَ القبطانُ إلى جارِهِ وهمسَ له : « أحْلِفُ لك باسمِ مُحمّدٍ أنه لا وُجودَ لمثل هذه العاصفةِ . »

ولكنْ ما أسرعَ أن حلّ العِقابُ ! إذْ لم نكَدْ نتسرّب إلى قَمراتِنا حتّى هبّت ريحٌ جنوبيةٌ وأخذتِ السّفينةُ تتأرْجَحُ حتى استحالَ علينا النّوْمُ، ثم أخذَتْ

تتقاذفها الأمواجُ يمنةً ويَسرةً وكأنّها سِكّيرٌ يترنّحُ من فِعْلِ الشراب . وكانتِ الرّياحُ الغربيةُ والشرقيةُ تتناوبُ الهبوب كلّ ثلاثِ دقائق بالضبطِ حتى أصبحتِ الحياةُ على السّفينةِ جحيماً لا يُطاقُ .

وعند ما انبَلَجَ الصباحُ هبّت ريحٌ شماليّةٌ عاتيةٌ وكان من شِدّتِها أن دكتْ الساريةَ الكبرى فسقطَتْ على بيتِ البُصلة فحطّمَتْه تحطيماً ، فأصبحتْ السّفينةُ وقد تحطّمَتْ بُصْلَتُها تضرِبُ في هـذه البحارِ الواسعةِ دون هُدًى، ومَثلُها في ذلك مَثلُ رجُلٍ غريبٍ كُمّتْ عيْناهُ يقِفُ بيْنَ مُفترقِ الطُّرق دون دليلٍ يقودُه وهو لا يعرِفُ السّبيلَ إلى الهدَفِ الذي يسعى إليه؛ ثم غمرت السماءَ حلكةٌ عميقة فكنّا نشقُّ عُبابَ الماء وكأنّ سفينَتنا حبيسةٌ في جُوالَقٍ مقفولٍ .

ومضينا على هـذا النّحْو شهراً كاملاً ؛ أمّا في النهارِ فكان الضّوء كوقْتِ المشيّةِ، أمّا في اللّيل فكان الظّلامُ مُطبقاً، أمّا الشمسُ والقمرُ والنجومُ فلم نَرَ لها وجْهاً خِلالَ ثلاثةَ عشرَ أُسْبوعاً ؛ وأخذتِ الريحُ تعبثُ بسارِيات السّفينةِ واحدةً إثْرَ واحدةٍ ، فكانتْ تحمِلُها على رأسِ الأمْواجِ فتبدو وكأنّها على قمّةِ جبل ثم تهبطُ بها حتى تكاد تغمُرُها . وإنّه من النّادر أن تنْجو من أهوالِ هـذا البحرِ فرطاقةٌ قد دُكّتْ سواريها وتحطّمَتْ بُصلتُها ورُكّبَ على جنبَاتها سبعونَ مِدْفعاً وحملَتْ على ظهرِها أربعَمائة رجُلٍ أو خمسَمائة !

وفي النّهايةِ هدأتِ العاصفةُ ولكنّ البحرَ ما فتِئَ هائجًا بعض الشّيْء فحَمَلَ

حطامَ السّفينةِ على متْنِه وليْسَ فينا مَنْ يَعْرِفُ إلى أينَ المصيرُ . وأخذَتِ المؤونة فى النّفادِ حتّى إذا أتَينا على آخرها أشرقَتِ الشمسُ للمرّةِ الأولى وهبَّت ريح دافئةٌ رقيقةٌ حملَتْ معها رائحةً زكيةً عَبِقةً تفتّحَت لها الأنوفُ فتذكَّرْنا رائحةَ البُرتقالِ، وعلى حينِ فجأةٍ لمعَتْ فى خاطرى ذِكْرى قديمةٌ فقلتُ لنفْسِى: إن هــذه الرّائحةَ لتعودُ بى إلى أيّامِ شِواءِ السّفافيدِ وسيجار الهافانا ! فما أنِ انتهَيتُ حتّى همسَت مئاتٌ من الأصوات مُردِّدةً! نعَمَ الشواء والسيجارُ، وهكذا قضينا أُسْبوعًا كاملاً نعيشُ على هذه الرّائحةِ المغذّية المشبعةِ .

فلما كانَ اليومُ الثّامن اقتربْنا من الشّاطِئ وكم كانت دهشتنا عنــد ما رأيْنا أنّنا نهبِطُ مدينة «هافانا» نفْسَها فى الطرف الشمالىّ لجزيرة « كوبا » نعم لقد صَدَقَ حَدْسى إذ كانت تلك الرائحة من عبَقِ السيجارِ فعْلاً .

وفى اليومِ الثّانى نزلتُ إلى الشّاطئ وجلسْتُ أُدخّن هذا السّيجارَ الفاخرَ بيْنَ جماعةٍ من زُرّاعِ التّبغ أقُصُّ عليهم طرفًا من مُغامراتى وهم بين مُصدِّقٍ ومكذّبٍ ، فمنهم مَنْ كانَ يضْحَكُ ، ومنهم مَنْ كان يتساءلُ ، ومنهم مَنْ كان يُمَشِّطُ شعرهُ بأصابعه وقد تملّكَتْهُ الدهْشةُ واسْتحوذَت عليه الغَرابة ولــكنْ لم يَطلْ مقامى فى هذه المدينة إذْ وجدْت فى اللّيْلةِ نفسها سفينةً أقْلعَتُ بها إلى اوربا . والآنَ أترككم يا أصدقائى ويارفاقى الأعزّاء وأشكركم لجميلِ إصغائكم لحديثى، وأرْجو لــكم ليلةً سعيدةً .

الليلة الثامنة عشرة

طلب منّى صديقنا مراقبُ الغاباتِ أنْ أُفضى إليه بحقيقةِ تلك المهمّةِ التى قمت بها منذُ بضع سنين فى مدينةِ «وِيزِل» ، وفى هذه الليلةِ سأروى لكم خبرها .

أُريدُ أن أُنوّهَ لكم بادئ ذى بدءٍ بأنّ هذه القصةَ طويلةٌ لا يتّسع لروايتها المكان والزمان ، كما أُريدُ أن أُنبّهَ أذهانكم إلى أنّ العالمَ ما فتئَ إلى اليوم يجهلُ هذا السّرّ ، لهذا أستميحكم عُذراً إذا طلبْتُ منكم أن تمتنِعوا عن إفشاء هذا السّرّ لأحدٍ من النّاسِ .

جرَت حوادثُ هذه الحكاية مُنذُ بضعِ سنينَ ، ولا شكّ فى أنّ الحكومة تسوءها إشاعةُ هذا الخبَرِ خوفا من أن تتَوَلّاهُ الصّحافة بالتّهويلِ والمغالاةِ . وكلُّ ما هنالك أنّ القِيادة العسكريّة فى «ويزل» كلّفتْنى بمهمّةٍ لم أعْرف حقيقتها تمامًا عندما تسلمتُ رسالةَ القِيادة المهمّةِ التى تذكرُ فيها أنّ مدافع الحصْنِ هناك قدفتكَتْ بها دودةُ الحديدِ !

وإنّه ليبْدُو على أعينكم يا أصدقائى ما يدل على أنكم فى حيرةٍ ودهْشةٍ ممّا أقولُ : أتسْألُوننى ما هى دودةُ الحديدِ هذه ؟ فأُقرِّر لكم أنّى لم أسمعْ عنها قبل ذلك اليوم ، وإنّى ما زِلت أعلم عنها القليل !

فلما وصلتُ إلى «ويزل» وجدتُ قائدَ الحصنِ في انتظاري وفي رفقتِه ضابطُ المدفعيَّةِ وغيرُهُ من الرجال العسكريِّين ، وكانت وجوهُهم تُنبِئُ بما هُمْ فيه من حيرةٍ وتفكيرٍ شديدٍ ؛ ومِن ثَمَّ انطلقنا إلى القَلْعةِ حيثُ وجدْنا طبيبَ المعسكَرِ في انتظارِنا . فلمَّا سألتُ عن الظروف وعن الأسبابِ التي أدَّتْ إلى هذه الفاجعةِ لم يُجِبِ القائِدُ إلَّا بهزٍّ أكتافه ، ثم همَسَ الضابطُ في أُذني قائلاً : « لا ضرورةَ للكلام وإعادةِ الحديثِ فسوفَ ترى بعيْنَيْك » ، فلمَّا وصلْنا إلى الحصْنِ تخلَّفَ القائِدُ وسِرْنا في سِرْدابٍ مُظلمٍ ــ وكُنَّا خمسةً ــ يحمِلُ كل واحد منا مِصباحًا حتَّى إذا هَبَطْنا إلى فِناءٍ سُفْلِيّ وجدْنا نحواً من سبعينَ مِدْفعًا مصفوفةً الواحد منها إلى جوارِ الآخَرِ .

ففَتَح ضابطُ المِدْفعيَّة فمُهُ ، وقال بصوْتٍ أجش : « ها هِيَ ذي ضحايا دودةِ الحديدِ » . ولما اقتربْنا من هذه الأجسامِ الحديديةِ شاهدْتُ في ضوءِ المصباحِ أنَّ دمْعَةً تترقْرَقُ في عيْنِ كلّ واحدٍ منهم .

فسألتُ الضابطَ عن عددِ هذه المدافعِ المصابةِ،فذكَر أنَّها كانَتْ إلى الأمسِ ثلاثة وستِّين وزادَتْ في يوْمِنا هذا ثمانيةً اخرى فأصْبَح عددُ ما أُصيبَ من المدافعِ إلى اليوم أحداً وسبعينَ مِدْفعًا. فانحَنَيْتُ قليلاً لأبصرَ مبلَغَ فتْكِ الدودة بالحديدِ، وإنِّي اؤكِّدُ لكم يا سادتي أنَّ هزَّةً عنيفةً شَمَلَتْني فأحْسَسْت بالدمِ يتدَفَّقُ في عُروقي ؛ أنتم تَسْألونَني ماذا رأيْتُ ؟

لقد رأيتُ هذه الأجسامَ الحديديةَ وقد نخرتها الديدانُ ومن بينها ما كانت إصابتُهُ بالغةً فانتشرتْ الثقوبُ في أكثر أجزائه حتّى أصبحَ كالتفاحة المنقورة، وبعضها قد فتكتْ به الديدانُ فتكاً ذريعًا حتّى أصبح كالعدم ، فكانت الثقوبُ يجاورُ بعضُها بعضًا فأصبح منظرُ بعض هذه المدافع كإسفنجةٍ من حديدٍ وإذا نقرَ حدٌ عليها بمطرقةٍ فإنّها كانت تتساقطُ ترابًا أسودَ .

لقدْ أخرسَنى هذا المنظرُ في باديء الأمر ولما سألتُ عن تاريخ هذه الفاجعةِ علمتُ أنّ أوّلَ ظهور هذه الديدانِ جرى منذُ أربعة أسابيعَ وتوالى بعد ذلك فتْكُ الديدانِ وانتشر يومًا بعد يوم ، ومع ذلك فلم يتمكّن أحدٌ من أن يرى الدودةَ مصدرَ هذه الكوارثِ. فأخذتُ أفكّرُ وأُقلّب الرأيَ فيما أنا مُقدمٌ عليه وفى العلاج الذى يصلحُ للقضاء على هذه الحشرة .

ومن العجيبِ أن أحداً لم يُفكّرْ حتّى ذلك الحينِ في القضاء على مصدرِ هذه النكبةِ ! فلعلّ المصيبةَ قد أعجزت أهل «ويزل» عن التفكيرِ أو عن القيامِ بأيةِ محاولةٍ للقضاء على دودة الحديدِ هذه . وكان اوّلُ ما فكّرتُ فيه أن أقضىَ على العدْوَى بالنّار . وعند ما عرضتُ رأيي على قائدِ الحاميةِ استحسن الفكرة وأمر ببناءِ فرن كأفرانِ صهرِ الحديدِ فتمّ إعدادُ ذلك على وجهٍ من السّرعة خِلالَ ثلاثةِ أيّامٍ وفى أثناء ذلكَ انتقلَتِ العدْوى إلى أحدَ عشرَ مِدفعًا وبذلكَ أصبحتْ جملةُ الإصابات اثنتين وثمانين .

فلمّا تأجّجَتْ نيرانُ الفُرن وضعْنا فيها على سَبيل التّجربة عِشرين أنبوبةً حديديّةً من بين التى نخَرتها الديدانُ واثنَتَىْ عشْرة أخرى سليمةً ، ورأيْتُ أن تُبقى هـذه جميعاً يومَيْن كاملين وبَعْدها تُنقلُ إلى حوضٍ كبيرٍ خُلِطَ ماؤه بغاز الـكلور وهُناكَ تَبقى مَغْمورةً ثمانيةَ أيّامٍ أُخرى .

وفى خلالِ ذلك كله كنتُ موضعَ احترام رجال الحامِيَةِ وإكبارِهِمْ فكانوا ينظرون إلىّ نظرتَهم إلى الصديق المُنْقِذ وراحوا يدعونَنى بطبيبِ المدافع؛ فلم ينقضِ يومٌ دون أن يجرى عرضٌ عسكريٌّ فى القلعة ، ولا يمُرُّ مساءٌ دون وليمةٍ فاخرةٍ ابتهاجًا بى، وبينما كنّا على هـذهِ الحالِ كانت العَدْوى تزدادُ انتشاراً فاصيبَ إبّانَ ذَلك أحدٌ وخمسونَ مِدفعاً آخر فأصْحَتْ جملةُ الضّحايا مائةً وثلاثةً وثلاثين مِدفَما ، ومَع ذلك فكانت الآمالُ مَعْقودةً بنجاحِ العِلاج الذى بدأْتُه .

فلما كانَ اليومُ التاسعُ أفرغنا الحوْضَ من الماءِ فوَجَدْنا أنّ الأنابيب الحديديّةَ قد غَطّتها طبقةٌ سميكةٌ من الصّدأ ولـكن عِند ما اقتربتُ مِنها أصابنى الذُّعْرُ ، إذْ وجدت أن الثقوبَ قد شاعت فيها أكْثرَ من ذى قبلُ، وأُصيبَتْ بالعَدْوَى كذلك المدافعُ السليمَةُ فبلغَتْ جملةُ الضَّحايا حتَّى ذلك اليومِ مائةً وخمسةً وأربعين مدفعاً .

أراكُم تبتَسِمون سُخريةً ياأصدقائى! ولـكن ليس فى هـذه القصَّةِ ما يدعو إلى الابتسامِ ! لقد قضيتُ تلك الليلةَ أرِقاً أُقَلّبُ الرأىَ على كلّ وجه ، ولـكن

لكلِّ شيءٍ نهايةٌ ، وكذلك الحالُ في تلك الليلةِ فما إن أقبلَ الصَّباح، وما إنْ أرسلت الشمسُ شعاعها الأول حتى انتفضتُ من مرقدى وأنا أُردِّد ـ وكأنّنى أكلِّمُ عدُوّى المجهولَ : « لقد غالبْتِ أيّتُها الدودةُ النارَ والماء ، فلم يبْقَ إلّا أن أحاربَكِ بسُمٍّ أُرسِلُهُ إلى جوفك . . ! »

وما أسرعَ أنِ ارتديتُ ملابسي العسكريّةَ وهَرْوَلْتُ إلى غرفةِ القائدِ الذى كان فى تلك السّاعةِ يُصارع الكابوسَ ، فأيقظْتُه وجلسْتُ إلى جانبه أشرحُ له فكرتى الجديدةَ الّتى قابلَها باعتبارٍ كبيرٍ ؛ فأمر بنفْخِ البوق فتجمّع الرجالُ على ندائه فقسَّمهم جماعتيْن أرسَلَ نصفَهم لجمع « عُشّ الغراب » وهو نباتٌ بريٌّ سامٌّ، أما النِّصف الآخرُ من الجنود فراحوا يساعِدون صانعَ النّحاسِ فى تجهيزِ قِدْرٍ نحاسيَّةٍ ضخمةٍ فى حجم فتحةِ الفُرن .

فلما أقبل المساء عادَ الرِّجالُ يحمِلونَ السِّلال المليئةَ بـ «عُشّ الغُراب» وكانت النَّار متأجّجةً تحتَ القدر النّحاسِيَّة التى مُلِئ نصفها بالزيتِ ، فلما غلى الزيتُ ألقينا فيه بمئاتِ الأرطال من عُشّ الغراب وتركْنا النّار إلى الصَّباحِ لتُسوِّيَ هذه العجينةَ السَّامّةَ . ولا أُريدُ أن أُطيلَ عليكم الوصفَ والكلامَ ، إذ كلُّ ما هُنالك أننا وَضَعْنا الزيْتَ فى حوضٍ كبيرٍ ومِن ثَمّ ألقينا فيه بمائةٍ وخمسٍ وأربعين أُنبوبةً حديديّةً .

أما النَّوم فلم يَطْرُق عينيَّ تلكَ الليلةَ أبدا فلمّا انبلَجَ الصَّباحُ أسرعتُ إلى ذلك الحوض فألفيْتُ مئاتٍ من الدِّيدانِ الصَّغيرةِ سابحةً على وجهِ الزَّيتِ الذى

بدا كالحساءِ السميكِ. وكانت هذه الديدانُ كالخيوطِ الرفيعةِ فى قدْرِ البوصةِ خضراءَ اللَّوْنِ لامعةً تميلُ حيناً إلى الصفرةِ وحيناً إلى الزرقة ، فانحنيْتُ ورفعْتُ اثنتيْن منها فلم يُداخِلْنِي الشكُّ فى أنهما بقيّة من بقايا تلك الحشرةِ التى فتك بها السُّمّ ، فلما استقبلَتا الهواءَ تفتّتتا . ثم إن عيْنِي انحرفَتْ يَسرةً فوجدتُ عند حافة الحوضِ دودَتيْنِ تنبُضُ فيهما الحياةُ وكان طولُ الواحدةِ منهما رُبعَ قدم وقد انتصبَتا ومالتِ الواحدةُ منهما على الأخرى وكأنّهما تُعانى آلاماً مُبَرِّحة، وبيْن الفَيْنة والفَيْنة كانت تبرُزُ منهما قُرونٌ تُشبِهُ الخيوط ثم سُرعان ما تَخْتَفِى .

وما إن زالت دهشتي حتّى اقتربْتُ منهما وفتحْتُ كفِّى لأقبض عليهما، فحدثَ فى تلك اللَّحْظةِ أن أقبل جماعةٌ من رجالِ الحاميةِ وهم يتحدّثونَ بصوْتٍ مُزعِجٍ ، فما كانَ من الدُّودتيْنِ إلّا أن وثبَتا فى الهواءِ وألْقتَا بنفسَيْهما فى حَوْضِ الزَّيْتِ .

حدثَ كلُّ هذا أمامَ عينيّ ولم أجِدْ فُرْصةً للحيلولةِ دُونَ ذلك. ثم ذكرتُ للقائدِ ما شاهدْتُ فأمَرَ بدَوْره جماعةً من رجاله وأفرَغوا هذا المزيجَ السّامَّ ، فلما نضُبَ الحوْضُ لم نجد بقايا لهذه الحشرات ، فقد ماتت وهلكَتْ وتحلّلتْ أجسادُها . عند ذلك رُفعت الأسطوانةُ الحديديّةُ من مكانها وجُفِّفَتْ وعُرِضَت للاختبار ، ووُجِدَ بعدَ ذلك أنّ العدوّ قدْ باء بالهزيمة وأن الإصاباتِ قد وقفَتْ عند هذا الحدِّ ، ولكن لم يُشاهَدْ أثرٌ واحدٌ لديدان الحديد؛ أما هذا الدواء الذى ابتكرْتُهُ فقد ثبتَ أنّه عِلاجٌ ناجعٌ قاطعٌ لأمراض الحديد، وأنّه يقضى على ديدان الحديد قضاءً مُبْرَمًا .



وقد مَنَحَتْنِى الدوْلةُ نصفَ مليونٍ من التّالات(١) ، ولـكنّنى رَفضْتُ المنحةَ كما مَنحتْنِى وسامًا سامِيًا فاعتذرتُ ، إذْ أنّنى لا أُريدُ أن أستعيدَ الكلام عن الدِّيدانِ الحديديّةِ وعن وسائِلِ القضاء عليها ، وكلُّ ما يمكن أن أقولهُ هو أنكم تلاحِظونَ أن أُسطوانات المدافع التى تصْنَعُ منذ ذلكَ التّاريخِ هى من مزيجٍ نحاسىٍّ وهو المعدن الذى تُصْنع منه الأجْراس؛ وذلكَ خوفًا من أن تخترمها الدودة الحديدية!

ويحسُنُ بى أن أُذكِّرَكم بأن تلكَ المدافع التى فتكَتْ بها الدُّودة وأصبحتْ كالإسْفَنْجَة قد طُرِحتْ جانبًا. وكان رجال المدفعِيَّةِ يقطِّعون منها قطعًا لصقْل المدافع وتلميعها. وقد أرْسَلَ فى طلبى جماعةٌ من العُلماء ، ولـكنَّ أحداً منهم لم يجدْ أثراً فى كتب التاريخِ الطّبيعىِّ لدودَةِ الحديدِ، ولولا أنّنى شاهدْتها بعيْنَىْ رأسى ورأيتُها بنفسى لشكَكْتُ بدوْرى فى الأمر. نعم إنّ العلماءَ لا يَعرِفون كلَّ شىء!

(١) التال عملة ألمانية قديمة قيمتها نحو خمسة وعشرين قرشا .

الليلة التاسعة عشرة

لعلّ الشّكّ بدأ يساورُكم في مدى مَعرفةِ العلماء بالأسرار الطّبيعةِ! وإنّني لأروي لكم هذه اللّيلةَ شيئًا عن البردِ القارسِ مُعتمداً في ذلك على مُشاهداتٍ شخصية يجهلُ أمرها العلماءُ أنفسُهُمْ .

رَوَى لي صديقٌ لا أشكُّ في صحّةِ روايته أنّه كان في رحلةٍ إلى البحرِ المتجمّدِ الشّماليّ ، وكان البردُ شَديداً قارسًا حتّى إنّ الشموع إذا وُضِعت في مكانٍ على ظهر السّفينةِ، فاأسرَع أنْ تنطفئ مع أنّ الهواءَ ساكنٌ لا يتحرّك بل يصبح من المستحيل أن توقد ثانيةً ، وذلكَ لأنّ الشّمع أو الدهن الذي تُغرسُ فيه الفتيلةُ سُرْعان ما يتجمّد! والواقع أنّني لم أُشاهِدْ هذه الظاهرةَ بنفسي وكنْتُ من المحتمل أن أشكّ في صحةِ روايتها لولا أنّني شاهدْتُ أثناء مقامِي في روسيا حوادثَ مشابهةً .

إنّه من السّهلِ الميسور أن يهزّ الإنسان رأسَه ، ولا يصدّقُ ما يقال له لأن ما يقالُ قد يبدو مستحيلًا ، ولكنّ المثل اللّاتينيّ يقول : «إن تجاربَ الإنسان لا حدّ لها».

حدث ذات مرّة أنْ كُنتُ في رحلةٍ لصيْدِ الدّببَة وقد كان البرد شديداً للغايةِ حتى أنّني كُنْتُ كلّما أطلَقْتُ بندقيّتي كانت الرّصاصةُ تتفتّتُ إربًا وهذا

ما حدث بالفعل عند ما أصبتُ دُبّةً وقضيْتُ عليها ؛ ولكني ما كدْتُ أفعلُ ذلك وقبل أن أبحثَ في جيوبي عن رصاصةٍ أخرى ، حتى سمعتُ همهمةً غريبةً قريباً مني ، وما كدْتُ أدورُ برأسي حتّى رأيْتُ ذَكَرَ تلك الدُّبة المقتولةِ يتقدّمُ نحوي وقد فتح ذراعيْهِ وخُرطومَهُ الواسع واستعدَّ للوثوبِ عليّ.

ولما لم تكُنْ لي رغبةٌ لِأحتضِنَ هذا الدُّبَّ الذي صيّرْتُه أرملًا بقتلِ زوجته ولما كانت بندقيّتي خاليَةً في تلك اللحظةِ من الرصاصِ ، فأصبحتْ عديمَةَ النّفع ، لذلك كلِّه لم أجِدْ لنفسي مَخرَجًا إلا أن أتسلّقَ شجرةً قريبةً حتى أجدَ مُهْلةً لأشحنَ بندُقيّتي من جديدٍ وما هي إلّا لحظةٌ حتّى كنتُ فوق شجرةٍ قريبةٍ، وبينما كنْتُ أشْحَنُ البندقيّةَ بالبارودِ على عجلٍ إذْ برفّاصِ البُندقيّةِ يثِبُ من يدي التي أصبحتْ كالمشلولةِ من شدّةِ البردِ ويسقُط على الأرضِ تحتَ الشّجرةِ . عند ذلك عمّني الذُّعْرُ فجلَسْتُ على بعضِ أغصانِ الشّجرةِ حائرًا قلقا خوْفًا من أن يَجمعَ الدُّبُّ رأيَهُ ويصعدَ إلى مكاني .

ولكنّ الحظَّ كان حليفي إذْ أنّ الدبَّ بدلًا من أن يتّبعني راح إلى أُنْثاهُ الملقاة على الأرضِ وكأنّه يحاولُ أن يعرِفَ السّبب الذي من أجله بدتْ ساكنة عديمَةَ الحركة وقد تدفّقَ منها الدم على وجْهِ الثّلجِ الأبيضِ . فاقتَرَبَ منها وأخذ يشمُّها مرّاتٍ عدّةً ثم يلمسُها بكفِّهِ وهو يموء مواءً مُحزِنًا ، ثم طَفِقَ يدُور حولها وكأنه يحاولُ أن يرفعَها من مكانها .

وقد استغرَقَ ذلك بعض الوقت ، وهذا ما كنتُ فى حاجةٍ إليه حتّى أتمكن بوسيلةٍ من الوسائلِ أن أُنقذَ رصاصَ البُنْدُقيّةِ المُلْقى على الثّلجِ ، أمّا أنْ أُحاولَ ذلك بنَفْسى فكان بطبيعةِ الحالِ أمراً مستحيلًا . عند ذلكَ مدَّ إليَّ البردُ الشديدُ يَدَ المساعدةِ .

أخرجْتُ من جيبى قطعةً من لُبابِ الخبزِ الأبيض الذى كنتُ أَحملهُ لفطورى ومضغتُها قليلاً ثمّ عقدْتُها فى طرَفِ كرباجِ الصَّيْدِ وأَدْليتُها حتّى لَمَسَتْ رصاصَ البُندقيّةِ المُلْقى على الأرض وما أسرع أَن تجمّد لبابُ الْخُبْزِ . عنـد ذلك سحبْتُ الكرباج الذى الْتصق بطرَفِهِ رصاصُ البُندقيّةِ ! ولا أظنُّكم تعجزونَ عن تصوُّر ما حَدَثَ بعد ذلكَ . حشوْتُ بندُقيّتى من جديدٍ وأطْلقتها مرّتيْن على الذئب فأصابت الأولى صُدْغه والثّانيةُ قلبَه ، فارْتمى على الأرض وأخذ يعوِء وكأنّه يودِّعُ أُنثاهُ ويزأرُ زئيراً خافتًا وكأنّه يصبُّ جامَ غضبِه عليَّ !

والآن ، أنعِموا مساءً !

الليلة العشرون

عند ما التأمَ عقدُ الاجتماع فى هـذه الليلةِ دخل البارونُ بصُحْبَةِ شابٍّ فى مُقْتَبلِ العُمر قدَّمَهُ إلى الحاضرين باسم ابن أخيهِ « ڤالديمار فُون مونتشهاوزن » الذى جاء ليقضى بضعة أيّامٍ فى زيارةِ عمِّهِ لا سيّما أنّ كثيراً من أبناء الجامعةِ يعرفونَ أخاهُ التّوأم « أدالبيرتْ » .

فلما استقرَّ بهما المقامُ صاح أحـــدُ الجالسينَ من الشُّبان : « أهلًا بك «ياأدالبيرت»، وما الّذى دعا بعمّك ليقدِّمَك إلينا باسمِ أخيكَ «ڤالديمار» الذى لم تقعْ عيني عليه منذ أن كنّا نَدْرُسُ سَوِيًّا فى مَعْهدِ الغاباتِ . »

وبدلاً من أن يردَّ الشّابُّ على هذا السُّؤالِ أجابَ البارون :

« إنّ سببَ ذلك بسيطٌ للغايةِ ذلكَ أنَّ هذا الشّابَّ يُدْعى فِعْلاً «ڤالديمار» وإنْ كانَ من السَّهلِ أنْ يختلِطَ الأمرُ على النَّاظِرِ فيحسبهُ أخاهُ الّذى يُشبههُ شبهًا كاملًا . »

وبينما كان البارونُ يُؤَكِّدُ هذه الحقيقةَ اقترب السّائلُ من ابنِ أخيه، وكم كانت دهشتُه عنـد ما رأى أن الزائرَ لا يكادُ يفترقُ فى خِلْقتِهِ عن زميله فى الدراسةِ « أدالبيرت » الّذى يعرفُهُ معرفةً تامةً . فلما رأى البارونُ مبلَغَ دهشتِهِ عقَّبَ على ذلك بقوله :

« أحلفُ لك بشرفِ الفُروسيَّةِ أنَّ مَنْ تراهُ ليس صديقك أداليرت بل ڤالديار ! وإنى أؤكِّدُ لكم أن أقربَ المقرَّبينَ لأحدِ التَّوأمَيْنِ ليعجز عن التَّمييز بينهما فيُنادي الآخَر باسمِ أخيه الذى لم يرهُ من قبلُ، وإنِّى أترك ضيفَنا اللَّيلة ليقُصَّ عليكم طرفًا من الحكاياتِ التِّى امتلأتْ بها حياتهُ بسبب هـذا الشَّبَهِ التّام بينه وبيْنَ أخيه .

ثم إنَّ ڤالديار اعْتدلَ فى مكانه وراح يروى هذه الحكاية .

منذُ طفولتِنا الأولى كان التميزُ بيْنى وبيْنَ أخى عسيرًا للغايةِ بسببِ هـذا الشَّبَهِ العَظيم حتَّى إنَّ أبى وأُمِّى ما كانا ليفرّقا بيننا .

لهذا السَّببِ درجنا منذطفولتِنا على أن يلبَسَ كلُّ واحدٍ منَّا لونًا من الألوانِ، فكانت ملابسى دائمًا زرْقاء لهذا كنْتُ أُعْرَفُ بالولدِ الأزرقِ ، أماأخى أداليرت فكان يُعْرَفُ بالولدِ الأخضرِ نسبةً لهذا اللَّوْنِ الَّذى كان يرتديه دائمًا والَّذى كان يلائم دراستَه كتِلْميذٍ فى معْهدِ الغاباتِ . وإنِّى لأَرْوِى لكم حكايةً لعلَّكم تتندَّرون بها.

...

حدَثَ فى الخريفِ الماضِى أنْ خرجْنا فى رحْلةٍ إلى جبالِ «الهارزْ» وبعد ثمانيةِ أيَّامٍ انتهى بنا المطافُ إلى قريةٍ اعتزمْنا المبيتَ بها . فلمَّا كان الصَّباحُ حضَرَ المزيّنُ ليحْلِقَ لناوكنْتُ فى تلك السَّاعةِ نائمًا فى غُرفتى أماأخى أداليرت فكان مستعدا فى انتظارِ المزيِّنِ فلما أنِ انتهى من حِلاقة ذَقَنِهِ قصد أخى إلى غُرْفَةِ النَّوْم ليغسِلَ

وجْهَهُ من الصَّابونِ ، وفى تلك اللَّحْظة خرجْتُ بِدَوْرى إلى حيْثُ المزيِّنُ ، فلمَّا جلَسْتُ قُبالَتَهُ رجوْتُ منه أن يُعْنَى بِحلاقة وجْهِى إذْ كان اليومُ يوْمَ عُطْلةِ الأحدِ ولا أرغبُ فى أن أبْدُو بِلحيةٍ طالت فبلغَتْ نصفَ قدمٍ .

فلمَّا سمِعَ المزيِّنُ كلامى هزَّ رأسه وقال : « ليْسَ لى فيكَ حيلةٌ فما هِيَ إلَّا برهةٌ منذ أن تركْتُ وجهكَ .. » فلما اقترب منى كَاد يسقُط من الدهشةِ عند ما رأى لحيتى ولم يكن منه إلَّا أن دهَنَ وجهى بالصَّابون من جديدٍ وقال :

« إنَّنى لا أكادُ أُصَدِّقُ عينى إلَّا إذا كان ما أرى سحر ساحر ، فما شاهدْتُ فى يَوْمٍ من أيامى الطَّويلةِ منذ احترَفْتُ هذه الصِّناعة أنَّ لحيةً تنبتُ بهذه السُّرْعةِ وماذا أقُولُ لأبناء صناعتى إذا روَيْتُ لهم ما حدث ! ؟ »

فلما انتهى سألْتُهُ عن مِقدار أجرهِ فنفحْتُهُ ضِعفَ هذا القدْرِ أُجْرَةَ الحلاقتيْن ، ولكنَّه أبَى إلَّا أنْ يأخُذَ النِّصْفَ حتى شدَّدْتُ عليه ، ولما خرج سَمِعتُه يكلِّم نفسَهُ ويذْكُر السِّحْر والسَّحَرة .

عند ما انتهى فالديمار من حِكَايَتِه ، ارتفعتْ قهقهةُ الحاضرين . أمَّا البارونُ فابتَسَمَ ابتسامةً طفيفةً وراحَ يحكُّ ذقنَهُ بأصابعه وقال :

« أمَّا أنا فسأقُصُّ عليكم حِكايةَ مُزيِّنٍ آخر كنْتُ سببًا فى حيرتِه ودهْشَتِهِ وهذا ما سأرْوِى لكم خبرَهُ فى الْغَد ، فأستَوْدِعُكم الله هذه الليلةَ . »

الليلة الحادية والعشرون

أقبل البارونُ برفقةِ ابن أخيه، وما إنْ جلسَ حتّى بدأ الكلام دون أن يُمهِّد إلى ذلك بمُقدِّمةٍ كما هي عادتُهُ :

لي صديقٌ سافر إلى أمريكا للفُسحةِ، فلمّا عاد إلى ألمانيا أحضر دهاناً عجيباً اشتراهُ هناكَ، من صِفاتِهِ أنَّه يُطيل الشَّعْرَ ويُقوِّي جُذورهُ فأهداني مِن هذا الدواء سبعَ عُلبٍ كبيرة .

ولما كنْتُ في ذلك الوقْتِ في غيرِ حاجةٍ إلى هـذا الدِّهان إذ كنْتُ لا أُعْنَى بإطالةِ لحيتي خزَنْتُ هذه العُلَبَ في حجرةِ الحطَبِ، فحملَها خادمي «يوهان» وصفَّها على النَّافذة حيثُ شمسُ الظهيرة تغمرُها في كلِّ يومٍ .

مضت أيَّامٌ طويلةٌ لم يحـدُثْ فيها ما ذكَّرني بهذا الدهان، إذ كنتُ ـ فضلاً عن ذلك ـ لا ثقةَ لي به، وكنْتُ أعتقِدُ أنَّه من دَجْلِ الأمريكيِّين . ثم حدثَ بطريق الصُّدفة أنْ دخلْتُ هذه الحُجرةَ ذات مرّةٍ، وقد مضى على هـذا الدِّهانِ شهرٌ كاملٌ؛ فما إنْ خَطوْتُ خطْوَةً حتى وجدْتُ أرض الغُرْفةِ غارقةً في هذا السّائل اللّزجِ الذي يخوضُ فيـه الداخل حتى ركبتِهِ . فأنتم تذكرونَ يا أصدقائي كيف أنَّ الشَّمس قد أذابَتِ الدهْنَ فتسرَّبَ من صناديقِهِ إلى الأرض، ولـكن

الذى أُريدُ أنْ أوكِّده لكم هو أنَّ فِعْل الدهان ما فتِئَ قويًّا، بل لعلّه أصبح أشدَّ من ذى قبلُ؛ انحنَيْتُ وغمَسْتُ طرَفَ إصبَعى فى الزّيت ولمستُ به شفتى العُليا لمسًا رقيقًا فأحْسَسْتِ بلسْعةٍ مقبولةٍ لا أكثرَ. فلما أصبح الصَّباحُ ونظرتُ إلى وجْهى لم أكدْ أتبيّنُه، إذ فى خلال اللَّيْل نبتَ الشعر على شَفتى واستطالَ كشاربِ فُرْسانِ الهوسار.

وحدَثَ مرّةً أنْ كان المزيِّنُ يقومُ بخدْمتى فلمّا أنِ انتهَى ذهبْتُ إلى الغرفة المجاورَةِ ودهنْتُ وجهى بهذا الزّيت، فلمّا عُدْت إليه ليغسِل رُغْوَةَ الصّابونِ وجد أنَّ جذور الشعر نبَتَتْ من جديدٍ فعرتْهُ الدّهْشةُ وعاد يستكمل مهمّته وهكذا أعدْتُ هذهِ الفُكاهة سبع مرّاتٍ فى ذلك الصَّباح، والحلّاقُ فى كل مرّةٍ يحاولُ أن يضَعَ حدًّا لذلك حتّى كلّتْ ذراعهُ فلم يستطعْ أنْ يرفعَها من شِدَّةِ الإعْياء وكلَّت موسَاهُ من تكرارِ المحاولةِ.

وإنّه ليؤسِفُنى أن أعجز عن إثبات العجائبِ الّتى يصنعُها هــــذا الدّهان، لأنّه لم تعُدْ لدىَّ بقيّةٌ باقيةٌ منه. وسببُ ذلك أنّى أنفقتُ أكْثرهُ فى تربيةِ مُهْرٍ لى صحبَنى أثْناءَ اشتِراكى فى المعاركِ الحربيّةِ فى هولنْدا، وكان من أثرِ ذلك أنِ استْطال شعْرُ هذا المهْرِ حتّى بدا فى شكْل كلْبٍ من كلاب الزّينةِ، فكان إذا سارَ خلفى ولعب الهواءُ بخُصله الطويلة أثارَ إعجابَ السّائرِينَ ودهْشتَهُمْ، وقد أصاب خادمى « تُوبياز » نتيجةً لذلك بعضُ الخيرِ أو بعضُ الشرِّ لا أدْرى، إذ أنّ الشعْرَ



نبتَ في كفّيه حتى أصبح كالضّفائر ، كما نبتَ على صُدْغهُ على أثر لمسةٍ غيرِ مقصودةٍ عنـد ما كان يَمشُطُ هـذا المهْرَ ، حتى أنه كان يذهبُ إلى الأسواقِ ويَعْرِض نفْسَه للفرجةِ لقاء قدْرٍ من النُّقودِ .

لقد وعدْتـكم ياأصدقائى بأن أرْوِىَ لـكم طرفًا عن فعل حرارةِ الشّمس وما تقوم به من عجائب . وهذا ماحدثَ لى في تركيا ، ولـكنْ تأخّر بنا اللّيل فلْنُرْجئْ ذلك إلى الغَدِ .

الليلة الثانية والعشرون

حدَثَ مرّةً أن كنْتُ في استانبول في خِلال أحَدِ الأعيادِ التركية، فاستأجرتُ قاربًا للتّجديف في بحر «مَرْمَرَة»، وبينا أنا كذلك إذ لمحْتُ نقطةً سوداء متحرّكةً. فأثار ذلك حَدْسي وقلتُ لنفسي لعلّ ذلك طائرٌ من الطّيور. فلمّا رأى الملّاحُ حَيْرتي ذكر لي أنّه كثيراً ما يَرَى في هذه النّاحيةِ عروسًا من عرائِسِ البحر، وأنّ هذه العرائِسَ لا تؤثّر فيها البنادقُ.

والحقيقةُ أنّي لم أرَ في حياتي عَروسًا من عرائِسِ البحر، لهذا لم أصدِّق ماقاله الملّاحُ واعتبَرْته ضربًا من الخرافات الشّائِعة التي يُصدِّقُها صغارُ الأحلامِ دون أساسٍ معقول؛ ولكنّ الرّجُل الذي مرّت به تجاربُ الحياةِ المختلفة ورأى غرائبَها ليس لهُ إلّا أن يتمسّكَ بأهدابِ الحقيقةِ ولا يثِقَ إلّا بما يجدُ له إثباتًا قاطعًا.

وكان من حُسْنِ الحظِّ أن بُندُقيّتي كانت معي فرفعتُها إلى صدْري وأطلقْتُ ثلاث رصاصاتٍ أو أربعًا صوْب هذه النُّقطةِ المتحركةِ في الفضاء، فتبيَّنْتُ أنّها ما زالتْ تتحرّك وتبتعِدُ أكثرَ من ذي قبلُ، وأنَّ الارتفاعَ الذي ارتقتْ إليه لا تصِلُ إلى مداه البندُقيّةُ لهذا رأيْتُ أن أستخدمَ نوْعًا خاصًّا من الرّصاص بعيد المدَى، فحشوْتُ بندقيّتي بثلاثِ قذائفَ أخرى؛ وكان من العسيرِ أنْ أُصيبَ الهدَفَ لصعوبة الإصابة في ارتفاع رأسي والقاربُ من تحتي يتأرْجح يَمنةً ويَسرةً، فلمّا

أطلقتُ القذيفةَ تردّدتْ فرقعتُها في الهواء كالرّعد القاصف ؛ وفي تلكَ اللّحظة نفسِها وجدتُ نفسي مُلقًى في قاع القاربِ إذ دفعتني شدّةُ القذيفة إلى الوراء ، فارتميتُ في مكاني بُرْهةً وقد أُرْتِج عليّ من هوْلِ الصدْمة .

فلمّا فتحتُ عيني أبصرتُ تلكَ النّقطةَ السّوْداء وقد أخذتْ تهْبطُ فجأةً حتّى إذااقتربتْ من مَدَى البصرِ تبيّنْتُها جَلِيًّا فإذابهامِنطادٌ هوائيٌّ ، وليست طائراً من الطيور كما كنْتُ أعتقِدُ . وأخذْتُ أُقدّرمدىعِظَم الارتفاعِ الذى كان يسبحُ فيه المنطادُ حين كان لا يبْدُو للعَيْن إلّا شِبْهَ نُقْطةٍ غامقةِ اللّوْن ، حتّى إذا اقتربَ من الأرض بدا في حجمِهِ الطّبيعيّ فكان محيطُه أكثرَ اتّساعاً من قُبّةِ جامعِ استانْبول الكبير الذى اقترب المنطادُ منها فبدا التّماثُلُ بينهما واضحًا .

وكانت تتدلّى من المنطادِ سَلّةٌ كبيرةٌ في حجْمِ القاربِ الذى كنْتُ اركبهُ . وفي كلّ لحظةٍ كان هذا الماردُ يقْتربُ من سطحِ الماء شيئًا فشيئًا وما هيَ إلّا لحظةٌ حتّى سقَطَ في البحرِ بدويٍّ هائلٍ وتناثر الماء من شِدّةِ السّقْطة إلى ارتفاعٍ كبيرٍ وقد عرَفْتُ بعد ذلكَ أنّ هـذا الدّويَّ سمِعَهُ النّاسُ في اسطنْبولَ نفسِها ، بل على مسافةٍ أبْعَدَ من ذلكَ ، فسمِعَهُ النّاس على الشاطئِ الأسْيَويّ ، وكان الرّأيُ السّائِدُ أنّ مخزنًا من مخازنِ البارود قدِ انفجَرَ في الهواء وأحْدَثَ هـذا الدّويّ المرْعِبَ . وعلى كلّ حالٍ كانَ من حُسْنِ حظّي أنّ هـذا الجسمَ الهائل قد سقَطَ إلى يسار القاربِ الذى كنْتُ فيه ولم يَهْبِطْ على رؤوسنا .

فلمّا أن سكنت أمواج البحر التي ثارت بفعل سقوط المنطادِ اقتربْتُ بقاربي منه فوجدْتُ في سلّته رجلا هزيلَ الجسم من شِدّة الجوعِ والإعياء ، فلما رآني هشّ إليّ وحيّاني تحية الرّجل المدين له بحياته . فعرفتُ منه أنّ اسمه مستر «سمِث» وأنّه إنجليزيّ، ثم قص عليّ حكايتَهُ.

كان هذا الرّجل يعملُ ملّاحًا هوائيًا فخرج قبل ذلك بخمسةِ أيّامٍ من مدينة نيويورك بصحبة اثنَيْن قاصدين شلّالات نياجرا . وما إن ارتفع المنطادُ في الهواء متّجهًا صوْب الغرب حتى هبّتْ ريحٌ عاصفة حملَت المنطادَ في طياتها وقذفَتْ به صوْبَ المحيطِ الأطلسِي شرقًا. عند ذلك استقرّ رأيُ ثلاثتهم على الهبوط قبل أن يصل المنطادُ إلى حافةِ الماء ، ولـكنّ سوء الحظ لازمَهُمْ إذْ عنـد ما حاولوا فتْحَ صنبورِ الغازِ ليتسرَّبَ إلى الهواء وجدوا الحبل مقْطوعًا ، فاقترح الطيّار على رفيقَيْه أن يُسارعا إلى إنقاذِ نفسَيْهما بالمظلّةِ الهوائيّة قبل أن يستحيل ذلك عليهما إذا ما وصل المنطاد فوْقَ المحيطِ وهكذا نَجوا ، فلما هبَطا إلى الأرض وجدا أنّهما في جزيرة « نيو فوندلاند » ؛ أما مستر «سمِث» فقد دفعَتِ الرِّياحُ منطادَهُ شرقًا فلم يكن لديْهِ من أملٍ في النجاة إلا إذا قذفتْه الرّياح إلى سطح اليابسة فانتهى به المطاف إلى أوربا .

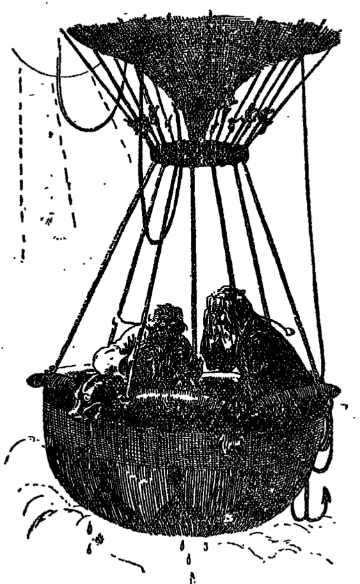
أخذتِ الرّياح تتقاذفُ هذا المنطادَ الذى صَمَدَ لها فلمْ ينفجر ويسقُط في الماء بل حالفه التوفيقُ فوصلَ برّ السّلامة ، ولـكن لم يكنْ في قدرة صاحبه

أن يهبط به إلى الأرض ، وكان ما يحمله من طعام وشراب قد نفِدَ حتى تكالب عليه الجوعُ والعطشُ فتهالكَ إعياء، فكانت القذيفةُ التي أطلقتُها سبباً في نجاته، إذ أحدثت ثغرةً في كُرَةِ المنطاد جعلت الغاز يتسرّبُ منها فيثقل وزنُه ويهبطُ إلى الأرض فبذلك نجا الطيّار من الموتِ الذي كان يتربّصُه .

وبدا مستر «سمِث» عارفاً بالجميل شاكراً لي صنيعي، حتى إنّه رغب في أن يقدّم إليّ المنطاد نفسه هديةً ولكنني رفضتُ عرضَهُ على كلِّ حالٍ إذْ لا أعرف ماذا أصنعُ بمثل هذه الهدية؟ أما صاحبُ المنطاد فكان يقصد في الحقيقة أن يعبّر لي عن جزيل إمتنانه لصنيعي، لذلك اقترحْتُ عليه أن يكتفي بأن أصحبه في رحلةٍ هوائيّةٍ وهذه أبلغُ في نفسي أثراً من الهدايا . فكان أوّلُ ما حرصنا عليه أن نُصلح خرق المنطاد، ولكننا لم نجد في تركيا جميعها إخصائيًّا في صناعةِ ترقيعِ المناطيدِ فعرضْتُ عليه وأنا باسمٌ أن أقوم بهذه المُهِمّة ؛ فلمّا كان اليوم الثّاني وجد لدهشته أن الخرْقَ قد أُصْلِح مكانه فارتقيْتُ وإيّاه سَلّةَ المنطاد ، وصحبَنا في هذه الرحلة الهوائيّةِ كلبٌ فارسيّ الأصل ضخمِ الجثّة اشتراه صديقي لوجاهة منظره .

وما إنِ استقرّ بنا المقام في هذه السّلة حتى قطع صديقي الحبل فأخذ المنطاد يصعد في الهواء شيئاً فشيئاً وكانت سرعةُ المنطاد في بادئ الأمر عنيفةً أو لعلّي أحسَسْتُ بها كذلك ، بيْد أنني ما أسرع أن فقدْتُ هذا الشعور المُمِضّ وطفِقتُ ألهُو بالنظر إلى مَشاهد الأرضِ والبحر التي بدت ساحرةً من

تحتى، والتى أخذَتْ دائرتها فى الاتِّساعِ شيئًا فشيئًا . فما إن انقضَتْ خمسُ دقائق حتى بَدَا أمامَ عينى البحرُ الأسودُ بأجمَعِهِ، وبدا من الطرَف الآخر شاطئُ الدردنيل وبعض أجزاء البحر الأبيض وطرفٌ من شاطئ إفريقيّة ، وبعد ساعةٍ من ذلك



نظرْتُ فإذا بأوربا جميعها ممتدّةٌ تحتنا وكأنها مصوّرٌ جُغرافى ، ثم ارتقينا إلى أبعدَ

من هذا قتراءت لنا آسيا حتى حدودِ الصِّين واليابان !

لقد كان المنظر فاتناً جميلا حتى إنّى نسيتُ كلّ شيء غيره ؛ أما قائد المنطادِ فبدا على مُحيّاهُ التّعبُ والاجهادُ إذ كلماارتقينامرحلةً ارتفعتْ درجةُ الحرارةِوأخذتْ نَبَضَاتُ قلبه تتوالَى وتتتابَع إذلم يحدُث أن ارتقَى صاحِبى إلى مثل هذا الارتفاع الكبير ، وأخذ العرقُ ينْدَفع من كلٍّ مسامِ جلده كالينابيع ، أما المنطاد فبَدَا لنظرى وكأنه يتمدّد بسبب خِفّة الهواء فى هـذه الطّبقات الجويّة العالية ، وقدّر صاحبى هذا الارتفاعَ بميلَيْنِ على الأقلّ ، أماأنا فخالفْتُهُ فى ذلك إذ قدّرت الارتفاعَ الذى وصلْنا إليه بمالايقل عن خمسةعشر ميلا أو عشرين ميلامن سطح البحر ، ومما أكّد لى ذلك شِدّة الحرارة الّتى تدلّ على أننا قد اقتربْنا من قُرْصِ الشّمس ، إذ كنت إذا نظرتُ إلى الأرض من تحتى لاأميِّز بين جبالهاوأوديتهافقد بَدَتْ للعَيْن صحيفةً ملساء.

عندذلك عرضْتُ على صاحبى أن نقتصر عنـد هذا الحدِّ ، فنفتَحَ صنبورَ الغازِ حتى إذا أخذ يتسرّبُ إلى الهواء يقلّ وزن المنطاد ونأخذ فى الهبوط، غيرأن صاحبى اعترف بأنه حاول ذلك فِعْلًا ولـكنَّ الحَبْلَ لم يسعفْه ، فإما أنَّه معقودٌ أو أن خللاً طرأ على الصُّنبور فى جزءٍ من أجزائِهِ ، وفى تلك اللَّحظة أخذ الكلب يتحرَّك ثم ينبح نباحًا حزينًا ، وكان قبل ذلك ساكنًا صامتًا لا يبدى حراكا ، وأخذ نُباحه بعد ذلك فى الخفوت كلما ازداد الارتفاع وتخلخل الهواء ، بل إنّ صوتَ صاحبى نفسِه لم يَعُدْ واضحًا فصار من العسير أن نتبادل الكلامَ . كلُّ هذا والمنطادُ

يتابعُ صعودَه فى هذا السّكون الذى انعدمت فيه الأصواتُ حتى إنّنا فى النّهاية لم نَعُدْ نتبادلُ الرّأْىَ إلا بالإشارة . وبَدَا لى أن رفيقى قد فَقَدَ قواه وأصبَحَ عاجزاً عن أن يَسْحَبَ الحبلَ الهوائىَّ بالشدّة اللازمة ، لهذا رأيْتُ أن أقومَ بهذه المُهمّة بدلا عنه فأمسكْتُ بطرف الحبل وجذبْتُه جذبًا عنيفًا ولكنّ صنبورَ الغاز لم ينفتِح ، وكلّ ماحدث أنّى قطعتُ الحبل نفسَه شطرين وسقطْتُ على الأرض فى قاع السّلة وما زلْتُ مُمسِكاً بطرفِه !

وعند ما تلفّتُّ حولى بعد بُرْهةٍ ألفيْتُ صديقى متمدِّداً كالأموات وقد فَقَدَ شعورَه من شدّةِ الصّدمة ، أما الكلب فقد مات بالفِعل ؛ فتدلّى لسانُه طويلا وتصلّبت أطرافُه وسكنَتْ حركة عينيه ووقفَتْ دقّاتُ قلبه :

يا لهُ من موقفٍ عديم المثال لا أكادُ أُصوِّره لكم بأمانةٍ وصدْقٍ! فقد غُمّ علىّ الأمر ولم أدْرِ كيف أُعالج الموقف ، إذ أن ما حَملْناه من نبيذٍ وماءٍ قد نَفِدَ وألقيْنا بالزُّجاجاتِ الفارغةِ إلى الأرضِ . زحفْتُ إلى حيث مستر «سمِث».فوجدْتُه ما زال يتنفس وإن كان نَبْضُه ضَعيفًا خافتًا، لهذا رأيت أن أُسرع لنجدته قبل أن يفوت الأوان. فلما وقعتْ عيناىّ على الكلب النافق مرّتْ بى فِكرةٌ خاطفةٌ ، فاستللتُ مُديتى وأنفذْتُها فى جلده حتّى تدفّق دمُهُ فى كفّى وأخذْتُ أُلطّخ به وجه الإنجليزىّ وصدْرَهُ .

ولاشكّ فى أنّ هذا كان عِلاجًا نافعًا لأنه أخذ يتنفّسُ ببُطءٍ وإن لم يعُدْ تماما إلى صَوابه، ثم جاء دوْرى فأخذتُ أمْسَح وجهى وجَبْهتى بهذا الدم ، فأحسَسْتُ بألمٍ كلسعة

الحريقِ ، ولـكنني لم أجِدْ وقتًا لأفـكرٍ فى نفسى ، بل كنت شديدَ الحرص على العِناية بزميلى حتّى يعودَ إلى رُشده ، ولما كانت يدى خاليةً من كلّ وسيلةٍ عمليّةٍ لإنقاذه ولم أجدْ بُدًّا من الاستعانة بهذا الكلب لهذا سلَخْتُ جلده وفتحْتُ بعض شرايينِهِ طلبًا للدّم الذى عُدتُ فَسحْتُ به وجهه وصدره وقَطَّرتُ نُقطًا منه فى فم المريض. لقد نجحْتُ، لأن صاحبى أخذ يتنفّس فى عُمق ثم إنه فتح عينيه واعتدل فى مَجْلِسه ولكنّ منظره كان مُخيفًا بعد أن تلَطَّخ وجهُه بالدّماء .

كلُّ هـذا والمنطاد ما فتِئَ صاعدا ، فماذا أنا صانعٌ ؟ لا أشكُّ فى أنّنا اقتربْنا كثيراً من الشّمس إذا أصبح الوهَجُ والحرارةُ لا تُحتَملُ . عند ذلك فكّرتُ فى طريقة أخرى للخلاصِ فجذبْتُ بندقيّتى وصوّبتها نحو المنطادِ وأطلقتها ولكنّنى لم أسمع لها صوتًا ! إذ كان الهواء قد وصل إلى درجةٍ من التّخَلْخُل جعلت الأصوات غير مسموعةٍ ، ولكنّ القذيفة أصابت الهدَفَ فعلا فأحْدَثَتْ ثغْرَةً فى كرة المنطاد جعلت الغاز يتسرّب منه رُوَيْداً رُوَيْداً وأخذ المنطاد فى الهبوط شيْئًا فشيئًا وبدأتْ الحرارةُ فى الانخفاض .

نعم إنّنى لم أتذوّقْ من قبل لحم الكلاب ولكنّنى ما كنت لأتورّعَ من أن ألتهِم هَبْرةً من لحمِ الكلابِ النّيِّء وأنا على تلك الحال ؛ وهذا ما حدث بالفعل ، إذ أخذتُ فى تشريح الكلبِ وما إن بدأتُ ذلك حتّى وجدْت ـ ويا للعجَب ـ أنّ الكلب كان مشويًّا تامّ النُّضج بفعل حرارة الشمس الشديدةِ ، فبينما كنتُ أنا

وصديق نحتمى فى ظل كُرة المنطادِ كان الكلب يتقلّى فى دُهنه حتّى أصبح طعمُهُ شهيًّا مقبولاً . ولا غَرابة فيما فعلناه إذ كنّا لا نتورّعُ عن أن نأكل ما هو دونه من طعام، ألم يأكل الشّيطانُ الذُّبابَ فى ساعةٍ من ساعاتِ بؤسه؟

وما إن انتهينا من طعامنا وتلفّتْنا حوْلَنا حتى وجدْنا أنفُسَنا على سَطح أُمّنا الأرض مرّةً أُخرى . وكان من حُسن الحظ أن تعلّقْنا بنخْلةٍ فوجدْنا بذلك الفاكِهةَ بعد الشواءِ! فبعد أن ازدردْنا حَفْنةً من البلحِ هبطنا إلى الأرض ورُحْنا إلى نبْعٍ قريبٍ لنطفئ الظّمأَ ونغتسِلَ ، وكان مستر «سمث» أشدّنا حاجةً إلى الاغتسال .

وحدث ـ كما يحدث عادةً بعد غِذاءٍ فاخرٍ ـ أن أحسَسْنا برغبةٍ مُلحّة فى النوم فانطرحْنا إلى جانب النّبع وما أسرع أن حلّ بنا النعاسُ فغفوْنا حتّى استيقظنا فى الصّباح على أصواتٍ تقترب منّا ؛ وكان القادمُ قافلةً لبعض التجار مُحمّلةً بالبضائع جاءت إلى النّبع لتشرب، فعرفتُ منهم أنّنا فى إحدى واحاتِ جزيرةِ العربِ الحجريّة القاحِلةِ، وأن القافلة فى طريقِها إلى القُدْس ، ولم نجد صعوبةً فى أن نُرافقَهُمْ إلى فِلسطين .

ولا أُريدُ أن أَقُصّ عليكم كيف أن أحد رجالِ القافلةِ من العارفينَ بالتّطبيب عُنِيَ بأمرى فاستأصلَ دُمّلًا كبيراً عندى كان قد نشأ بسبب الضغوط الهوائيّة وقد لا تُصدِّقونَنى إذا قلتُ إنّنى صنعتُ من جلدِ هذا الدمل خُفًّا عندما وصلْنا إلى القُدْس!

والآنَ لقد جفّ ريقى من الكلامِ ، ولعلّ ذكرياتِ حرارةِ الشّمس اللّافحةِ قد زادت من عطشى ، فإلىّ بزجاجةٍ من النّبيذِ أو بزجاجتَيْنِ!

الليلة الثالثة والعشرون

أصدقائى المحترمين ورفاقى الأعزاء .

حضرتُ فى هذه الليلة مُنفرداً كما ترونَ ، إذ أن ابن أخى أصرَّ على أن يعود إلى شقيقه التوأم الذى عزَّ عليه أن يُفارقه فسافر وصَحِبَتْه زوجتى فى رحلته ، لهذا أسألكم أن تسمحوا لى بأن أُشاطركُم العشاء فى هذا المطعم ، ولكم أن تعتبرونى رجلاً أرمَلَ إلى أن تعودَ إلىّ زوجتى .

وقبل أن أستكمل لكم قصتى التى بدأتُ روايتها فى اللّيلةِ الماضيةِ ، أُريدُ أن أؤكّدَ لكم أن تلك الرّحلةَ الهوائيةَ وما جرّتْ علىّ من متاعب مافتِئَتْ ذكرياتُها عالقةً بذهنى منذ ذلك العهد الطّويل . فلمّا وصلْنا إلى القدس وجد مستر «سمث» سفينةً أقلّتْه إلى لندن ، أما أنا فعُدْتُ أدراجى إلى اسطنبول . ولقد كان اختفائى السّياسىُّ من هذه المدينةِ كما تذكُرون سبباً لغضبِ السُّلطان وحنقه، فما إن تركْتُ المدينةَ حتى أُرسل المنادون خلفى يُعلنون النّاس بأجراسهم فى الشوارعِ بأن البارون قد اختفى، وأن السُّلطان يدفعُ مكافأةً قدرُها ألفُ جُنيهٍ لمن يأتى بالبارون أو يُرشِدُ عن مكانه .

علمتُ خبر هذا إبّان رحلتى ،فلما عدْتُ إلى اسطنبول أرسلْتُ أحد الانكشارية

إلى القصر يقول إن رجلًا غريبًا يعرفُ المكان الذى اختفى فيه البارون ؛ فلمّا سمع السُّلطان ذلك جاء إلى مكانى وهو يحمِلُ بين يديه كيسًا فيه ألفُ جنيهٍ. فأنتم ترونَ ياسادتى كيف أن جلالتَهُ يُحِبُّ للتندُّر والفكاهة إذ أنه ماوقعَ بصرُهُ علَىّ حتّى أقبَل هاشًا مُرحِّبًا : «أهْلاً بك ياصديقى مونشهاوزن ! ها أنت تعودُ إلينا ثانيةً ! ولـكن أينَ كنت وأينَ كان مُقامُك » فأجبته « .. لقد كنْتُ فى جوارِ الشَّمس !» .

. . .

وبينما كنّا نتنزّه فى حدائق القصر رَوَيْتُ للسُّلطان ما جرى لى أثناء رحلتى الأخيرةِ إلى الشَّمس ، فـكان لذلك وقْعٌ كبيرٌ على نفسه ، وأصابتْهُ دهشةٌ عميقةٌ عند ما ذكرتُ له بصفةٍ خاصةٍ كيف أنّ قوّتى الجسديّةَ الهائلةَ كانت سببًا فى نجاتنا . وفى تلك اللّحظة كنّا إلى جوار المِدْفَعِ النُّحاسىّ الـكبير المشهور الذى يُعتبرُ أضخمَ المدافع فى الدُّنيا قاطبةً وهو الّذى يُطلِقُ قنبلةً زنتُها ألْفٌ ومائةُ رطلٍ ويحتاج من البارود ما زِنته ثلاثمائة وثلاثون رطلا . فلمّا انتهيْتُ من كلامى ابتسم السُّلطانُ وقال :

« إذا كانَ ما تقوله صِدْقًا يامونشهاوزن فدونك هذا المِدفع اِرفعْه إلى الهواء إذا استْطعتَ . . »

فأجبْتُ السُّلطان: «لك ذلك بل إنى مستعِدٌّ لأقوم بتجربةٍ أبرع من هذه ، فأرفع هذا المارِدَ النُّحاسىّ بيَدٍ واحدة فى الهواء » .

ولعلّ السُّلطان كان يُريدُ أن يسخَر منّى لأنّه عرض علىّ إذا مارفعتُ المِدفع

وسرْتُ به مائةَ خطوة أن ينحنى مائة جُنَيه عن كل عَشر خُطوات . فأثار هـذا العَرْضُ فى نفسى الـكِبْرياء والشعورَ بالـكرامة .

فما إن انتهى من كلامه حتَّى خلعْتُ مِعطفى وانحنيْتُ على المدفع وقبضْتُ عليه بكلتا يدىّ ورفعتُه فى الهواء ثم وضعتُه على عاتقى ونَزَلْتُ به الدّرج .

فما ان رأى السُّلطان ذلك حتَّى صاح من الدهشة . ولـكنَّى لم أقِفْ ولم أتمهّل بل تابعْتُ سيرى حتى وصلْتُ إلى ساحل البحر فنزلْتُ به فى الماء وسألتُ السُّلطان كم ينقُدُنى إذا حملْتُ هذا المدفع سابحاً إلى الشَّاطئ الآخر ، فوعدنى بستِّين ألف جنيه إذا فعلتُ ذلك . لقد كان ذلك المجهودُ شاقاً ولـكننى سبحتُ بمهارةٍ ونجحْتُ فى الوصول إلى الشاطئ الاسيوى !

كنْتُ مُتعَباً بعض الشىء فارْتميتُ على الشاطئ لأستجم ، ولـكن ما هى إلا لحظات حتَّى وصلَ إلى مكانى زورق يُديرُه ثمانيةَ عشر مجدافاً يقلّ أحد باشوات القصرِ الذى جاء إلىّ يحملُ الأخبار بأن السلطان العظيم أرْسَله ليهنِّئنى ويمدُنى بأربعةِ أضعافِ المـكافأةِ إذا عُدْت بالمِدْفع إلى مكانه الأوَّل .

فلمَّا سمعْتُ كلام الباشا أحسَسْت بالنَّشاط يدب فى جسمى ، فإنَّ مائتين وأربعين ألفًا من الجنيهات ثروةٌ تدفعُ الرجُل ليأتى بالعجائب ، ولم أنتظرْ طويلاً بعد أن أكَّد لى الباشا أن السُّلطانَ جادّ فى كلامه ، فعقَدْتُ ذراعىّ واحتضنتُ هذا المدْفعَ الضخمَ وقذفْتُ به برمْيةٍ واحدة إلى الشاطئ الأوربى . ولـكنَّ سوء الحظ

لازمَنى إذ أن شِدَّة الرَّمْيَة لم تـكن كافيةً ، فسقط على بُعْدِ ثلاثمائة خُطوة من الشاطئِ وغرِقَ فى البحر حيث ما زال رابضا فى قاعِهِ إلى اليوْم . كان هذا الحادث سبباً لهربى من اسطنبول، ولم أحاول بعد ذلك العودةَ إلى هذه المدينةِ لأنّنى أعرفُ أن الحبْلَ الحريرىَّ ينتظرُنى ، لذلك عمدْتُ إلى التخفِّى فاشتريْتُ ثوْبًا من ثياب العمَّالِ ليخفى حقيقتى واسْتأجَرْتُ قاربًا شراعيًا من أحد البنادقة وهربْتُ به ، ومنذ هذا الحادث الذى انتهى بالفشَلِ لم تطأ قدماىَ أرضَ تركيا.

والآنَ فإلى العَشاء! فها هي صاحِبَةُ المطعم جاءتْ تدعونا ولا شكَّ للطعام، وإنِّى أسألكم ياسادتى هل تعرفون «الفِلْش» المشهور؟ لا لا ولاشكَّ! إنَّه اسم لصِنفٍ مُمتاز من السّمك لايعيش إلّا فى بحيْرة كنستانس بسويسرا ، ولهذا السّمك قصَّة..

. . .

منذ خمسةٍ وعشرين عاما كنْتُ فى مدينة «بازل» ضيْفًا على أحد أصدقائى لأشتَرِك فى حفلة عُرسه الَّتى كان سيحييها بعد أسبوعٍ من ذلك التاريخ ، وجاءت السَّيِّدة إلى صاحبى تشكو من اختفاء سمكِ الفِلْش وهو صنفٌ لا بدَّ منه فى ولائم الزَّواج ؛ ولما كنْتُ لم أسْمَعْ عنه من قبلُ سألْتُ عن نوعه وعن مكانه وعزَمْتُ فى التوِّ على السّفر إلى كنسْتانْس ولم تنقض ثلاثة أيام حتّى ملأْتُ سَلّةً كبيرةً من هذا السَّمكِ مع أنّى لستُ من هواةِ صيْدِ الأسماك . ولعلّى أخطأتُ فى حسابِ الأيامِ ففزعت خشية أن أصِلَ مُتأخِّراً عن موْعِدِ الحفل الذى

حسبْتُ أنه فى صباح ذلك اليوم نفسِه ، لذلك لم يكن أمامى إلّا أن أُسرع .

ولـكن كيف السّبيلُ إلى الوصول إلى «بازل» والرحلة من بحيرة كُنِسْتانس طويلة شاقة ومعى هذا الحِمْلُ من الأسماك ؟

سُرعان ما طرأت علىّ فـكرةٌ خاطفـة ، فألقيْتُ بالسّلة فى نهر الرين واعتليْتُها وتركْتُ ماءه المتدفّق يحملُنا إلى بازل، وفى أثناء ذلك أخذتُ ألهو بالصّيد فاصطدْتُ تسعَ عشرة سمكةً كبيرةً بعض الشىء وتركْتُها تسبحُ أمام السّـلة فتضاعفتْ سرعتُنا ، حتى إن الرّحلة من مدينة كنِسْتانِسْ على البحيرة المسمّاة باسمها إلى بازل لم تستغرق إلا ساعتيْن فضلا عن أنها كانت رحلةً شيّقة. وعند مامررتُ فى طريقى بشلّالات الرّين عند « شافهَوزن » التى كانت تُعرفُ أصـلا باسم « ناوْهاوِس » اصطدمتْ سفينتى ببعض الصخور فبللْتُ ثيابى ، فزاد ذلك من اعتراف مضيفى بفضلى .

...

والآن بعد خمسٍ وعشرين سنة يُحيِي صديقى هذا عيدَ زواجه الفِضىّ لهذا أرسل إلى هديّة من سمك الفلش تذكيرًا بفضلى القديم، جاءت ومعها برميلٌ صغيرٌ من نبيذ التفّاح وهو شرابٌ قد يكون مجهولاً لـكم ، فمن كان منكم لا يستسيغُ هذا النّوْع من النبيذ فإن صديقى تفضّل فوق هذا وذاك بسلّة من زجاجات الشّمْبانيا !

والآن أُقدِّم لكم يا أصدقائى ويا رفاقى الأعزّاء هذين الزّوجين الكريمين، وإنهما ليؤكّدان لكم أنّى لم أعدُ جادّة الحقيقة فى حكايتى - والآن فإلى المائدة !

...

وهكذا انقضت ساعاتٌ كلُّها فرحٌ ومرحٌ ، الْتهم الضّيوفُ خلالها أشهى صنوفِ الطعام وتقارعت الكؤوس ، وارتفعت الحناجرُ بالغناء ، ومُزج نبيذ التفّاح بالشّمبانيا وأكلَ المدعوّون للمرّةِ الأولى سمك الفِلْش المشهور حتى إذا رُفعت المائدةُ ، وجفّت الكؤوس ودّع البارون أصدقاءه ورفاقه ، إذ كان فى الغدِ قد عزم على شد الرّحال إلى بازل ، حيث يصحبُ صديقيه الكريمين فى رحلةٍ بين أرجاء سويسرا الجميلة .

الليلة الرابعة والعشرون

مضت سنةٌ كاملةٌ ، ولم ير أحدٌ البارون فون مونشهاوزن فى مكانه المعتادِ ، حتى إذا كانت هذه الليلة ظهر البارون على عتبة باب المطعم الذى اعتاد أن يقضى فيه لياليه مع أصحابه ورفاقه الأعزّاء.

وكان فى خِلال هذا العام غائباً فى أسفاره ورحلاته ، حتى إذا ما وصَلَ إلى الوطنِ فى الأمْسِ لم ينقضِ اليوْم حتى وَجَدَ طريقه إلى مكانه المعهودِ .

كان ظهور البارون على غيرِ انتظار من الجماعةِ ؛ فما كاد يخطُرُ فى الغُرْفةِ حتى استقبلتْه عاصفةٌ من التَّرْحيب وانهالت عليه الأسئلةُ من كلٍّ جالسٍ : من أين قَدِم ؟ وأيْن اختفى خلال هذه الفترة ؟ وماذا حَدَث له ؟ إلخ .

فابتسم البارونُ وقال :

أصدقائى ورفاقى الأعزّاء :

إذا انهالتْ على الإنسانِ عشراتٌ من الأسئلةِ على هذا النحو فلا شكَّ أنّه عاجز عنِ الإجابةِ عليها جميعاً فى وقتٍ واحدٍ، ومَثَلُهُ مثلُ من يقِفُ تحت شجرةٍ برقوقٍ قد نضِجت ثمارها فأصبح عاجزاً عن التفضيل بينها ، كذلك ليس لى إلّا أن أتخيَّر سؤالاً واحداً لأجيبَ عليه وبغير هذا لن أعرفَ كيفَ أبتدئُ وكيف أنتهى .

أتسألوننى من أين قَدِمْت ؟ وهذا ماسأرْوى لكم قصّته فى هذه الليلةَ .

أرجو ألّا أشيع الفزعَ بينكم إذا قلت لكم إنّى جئتُ من بلاد الهنود ! إذ أقصِدُ بذلك أمريكا .

إنّى أشاهدُ على وجوهكم سحابةً من الشكّ، فلعلّكم لم تفهموا ما أعنيه بذلك.

نعم يا سادتى لقد عُدت من أمريكا ، وفى خلالِ العامِ الفائتِ لم أترك التّطواف بين أرجاء هذه القارةِ العظيمة ، بينما كانتْ زوجَتى تنزلُ ضيْفةً فى باريس على خالتها الكونتيس «فون بلو» . نعم لقد عدتُ يا سادتى من أمريكا وإنّها لبلاد الغرائب التى لا يكاد العقل يصدّقُها . وكم كنت أوَدُّ أن أزورَ أمريكا قبل استكشافها إبّان ذلك العصر الذى كانت فيه بريّةً لم تتأثّر بسبيل الحضارة !

أما أمريكا اليوم فقد غزَتْها رُسُل التّمدُّن الأوربّى وضربتْ فيه بسهمٍ وفيرٍ حتى إن الرّجل العادى من سكّان الدُّنيا القديمة إذا حدث وزار أمريكا فإنّه لا يكادُ يصدّق ما يدور حوله كلّ يوم ، وإنى لأضرب لكم مثلاً فريداً عن عجائب السُّرْعة التى شاهدتها فى تلك البلاد .

عمد أهلُ أمريكا إلى تعبيد طُرُقٍ زراعية ممتدّةٍ ثبّتوا فى وسطها زوْجَيْنِ من القُضبانِ الحديديةِ لا نهايةَ لطولها، وعلى هذه القضبانِ سيّرواقافلةً من العرباتِ ربطوا الواحدة منها بالأخرى وأداروها بقوّة بخار الماء . وبدأ الناسُ فى أمريكا يسافرون بهذه الطّريقة منذ عام ١٦٥٠[1] وأصبحت منذ عام ١٧٦٧ الطريقة الشائعة للمواصلات

(١) الحقيقة أن أول خط حديدى أنشئ فى عام ١٨٢٥ ما بين مدينة منشستر ودارلنجتون فى انجلترا

ويدعوها الناس السكة الحديدية، وسوف يقلد أهل أوربا هذا الابتكار عما قريب وليس هذا بعجيب ولكنّ الغريب في الأمر السرعة الهائلة التي تسير بها هذه القُطُر !

وعلى مسافة خمسة أميال انجليزية أو عشرة أعدّوا مكاناً للانتظار؛ وهم يدعون هذا المكان «بالمحطّة» ؛ ولكلّ محطة مُشرف يدعونه بناظر المحطة وتراه واقفاً في صدر المكان كأنّه أمير من الأمراء .

وحدث مرة أن ركبت هذا القطار الحديديّ عند محطّة من المحطّات ، وما كدتُ أعتلي الدرجات وأقفُ على باب العربة حتى تقدّم إليّ أحدُ هؤلاء النظار وأراد أن يدفعني ، لأنه - كما يقولُ - يجب أن أجلسَ في عربة غير التّي كنتُ واقفاً أمام بابها . ولا شك أن الرّجلَ كان وقحاً ، ثم تبادلنا الألفاظ فما كان منّي إلّا أن رفعتُ يدي لأصفعه لوقاحته ؛ ولكنْ في تلك اللّحظة انطلق صفيرُ الحصان البخاري ؛ وانطلق القطار بسرعة هائلة حتى إنّني عند ما أردتُ أن أقبضَ ذراعي وجدتُني عند المحطة الثّانية على بُعْد ميلين ألمانيّين من المكان الأوّل ، وإذا يدي تسقُط على وجه ناظر المحطة الثّانية الذي لاذنبَ له،وكان هذا الرّجلُ سَمحاً طيّباً لذلك كان عليّ أن أُقدّم اعتذاري له .

...

في مُقاطعة «الينوس» التّي تمتدُّ على نهر شيكاغو وهو النهر الذي يصب في

بحيرة ميشيجان ، انتهى المطافُ بأحد أصْدقائى فاشتغلَ بالزِّراعة ، ولـكنْ مع



الأسف لم تـكُنْ ناجحة كما كان يُؤَمِّلُ . وحدثَ عند ما زُرْت هذا الصديق أن هبَّتْ زوبعـــةٌ شديدة دكَّتِ البيوت وحملَتْ أخشاب السقوف الضخمةَ وأطارتْها فى الهواء كما يطيرُ الريش ، وكان من الطَّبيعىّ أن تحمل هـذه الزوْبعة النَّاسَ والحيوان فحمَلتْنا جميعاً فى الفضاء كما حملَتْ معنا ستين من الزنوج الأرقا وأربعين من الهنود المستأنسين ، وبينما كنَّا معلّقين فى الهواء رأينا كيف أن

الزوبعة اقتلعتْ بئرين من الحجر وانطلقتْ بهما ...

وبعد أن حملتْنا الزَّوبعة نحو عشرةَ أميال إنجليزيّةٍ صوب الغرب ألقت بنا في بعض البرارى وما أشدَّ دهشتنا عند ما وجدْنا الزوبعةَ قد حملت إلى ذلك المكانِ نفسِه رفاقنا وحيواناتِنا، بل إننا رأيْنا أمام عيوننا بيوتنا بأحجارها وأخشابها التى حملَتْها الرياحُ. ولم نضع الوقت سُدًى فى الانتظار، إذ لم تنقضِ ستَّة أيَّام حتى غرسنا مزرعة جديدة فى هذا المكانِ وأقمْنا فيها بيوتنا من جديد.

ولكن أعجبَ العجب هو ماجرى للبئرين ؛ فهاتان البئران يا أصدقائى ويا رفاقى الأعزاء منقورتان فى الحجر وقد انتُزِعتا من جوْفِ الأرضِ انتزاعًا وحملَتْهما الرياح دون أن تعبثَ بهما ، ثم ألقت بهما فى المكانِ الجديد نفسه حتى كان من شدَّة الرِّيح أن غرستهما غرسًا فى جوْف الأرض ! ولكن الغريب فى الأمر أنه عند ما بدأنا نرفعُ الماء من البئر الأولى ثم من البئر الثَّانية وجدنا الدِّلاء ملْأى بماء كثيف غريب الشَّكل، فما إن رأيتُه حتى استوْلَتْ علىّ الدهشة إذ لم يكن هذا السَّائل ماءً بل زيتًا حجريًّا ـ وهو الَّذى يدعونه بالبترول ـ وهو الذى يُصلحون به المصابيح فترسلُ ضوءًا أشدَّ وهجًا من صنوف الزِّيت الأخرى ، ولم يكن فى ذلك الوقت مَن كان يعرفُ أهميَّة هذا الزيت . ولم تمضِ تسعةُ أشهرٍ وكنت إذ ذاك فى مدينة نيويورك حتى وصلنى خطابٌ من صديقى هذا يُنبئنى فيه كيف أنه ما فتِئ منذ ذلك التاريخ يبيع محصول هاتيْنِ البئريْنِ من البترول وأنه فى طريقه ليصبح من أصحاب

الملايين. نعم قد صدقَ المثلُ القديمُ الذى يقول : إنَّ الريح التى لا تحمِلُ معها خيراً ريحٌ خبيثة .

وأكثر هذه الزعازع تهبُّ فى الجنوبِ لا سيما فى أمريكا الوسطى ، وقد عرفت بنفسى شدَّة هذه الأعاصيرِ فى كوبا إحدى جُزر الهند الغربيَّة حيث ينمو أفخرُ أنواع التَّبغ ، فقد حدث مرَّة لصديقى بَرَانديزى (ومعنى ذلك دودة المطر) أن إعصاراً مطيراً اختَلَى به وهو فى الطريق إلى مصنعه فما أن وقفَ على عتبةِ البابِ حتى فاجأته الزَّوْبعة فحلَّتْ جميعَ أزرار معطفه من أعْلى إلى أسفل فلمَّا أدار وجْهه من شدَّةِ الصَّدمة والدهشة ، عادت الريح فعقَدَتْ هـذه الأزْرارَ فى أسرعِ من لمح البصر ، أما قبعتُه فقد حملَتها فى الفضاءِ إلى حيثُ لا رجْعة .

فأنتم ترَوْن يا أصدقائى أن ما رويتُه لكم مع غرابته حقيقةٌ لا ريْبَ فيها ، ولوْلا أنها حقيقةٌ واقعةٌ لما أمكن أن تحدثَ ! ؟

الليلة الخامسة والعشرون

في أمريكا أيها السادةُ ؛ كثيراً ما ينزعُ أهلُ تلك البلادِ إلى الفكاهةِ الغريبة كما حدث مرةً عند ما كنتُ في مدينةِ «فيلادلفيا» حيثُ عقدتُ الصُّحبةَ في فندقٍ كنت أنزل به بسيّدين يدعى أحدهما «كولفن» والثانى «استانهوب» وكانا يقضيان المساء عادةً في لعب الورق، فتَراهَنا على أن الرابح يدعو رفيقَه لفطورٍ لم يسْبق لأحدٍ أن أعدَّه لضيوفه؛ فخسر مستر استانهوب الرّهان لهذا اتّفق مع رفيقه على أن يقدم هذا الفَطورَ فى صباحِ الغدِ، ولكن على ارتفاع ستّةِ آلاف أو سبعة آلاف قدم من سطحِ الأرض! واستضافني صديقاي لأشترك في هذه الوليمة العجيبة.

وفي الصّباح الباكر اصطحبتُ المستر كولفن فى الموعد المحدَّد، وفى المكان المُعيّن لهذهِ الوليمة وجدْنا استانهوبَ فى انتظارنا إلى جانب منطاد هوائيّ ضخمٍ وقد رافقتْهُ طاهيتُه التى حملَتْ معها أدواتِ الطَّهْيِ وصِحافَ الطعامِ، ولما اكتمل جمْعُنا جلس قائدُ المنطاد فى مكانه وانطلقَ بنا فى الفضاءِ. وما إن أحسّتِ الطّاهِيَة بذلك حتى علاها الفزعُ وانطلقَتْ تصيحُ إذ كانت تلك مفاجأةً لها غيرَ منتظرةٍ، ثم إن سيّدها أمرها بالهدوءِ وبإعْداد طعامٍ لأربعة أشخاص على أن تكون فى حذرٍ إذا ما أوْقدَتِ النار حتى لا يمتد اللّهب إلى كرة المنطاد فتنفجر.

أخذتِ السّيدةُ تُعِدّ المائدةَ وهي ترتعشُ فرقاً، وكان قديدُ اللحمِ شهيّاً وكانت

الشمبانيا ممتازةً حتى إذا وصلْنا إلى ارتفاعِ ألفيْن من الأمتار تلفتَ مضيفُنا وقال لرفيقى : « أرجو أن تـكون راضياً عن هـذه الوليمة فإن هذه الرحْلة الهوائيّة كلّفتنى ثلاثمائة جُنيهٍ ، أما الطاهيةُ فإنّى سأدْفع لها مائتيْن من الجنيهات مكافأةً لها، فكأنّى دفعتُ ثمناً لهذا الفطور خمسمائةجنيهٍ ، أرجو أن يكون ذلك كافيًا ! »

والآن أيها السادةُ أستودِعُكم الله إلى ليلةٍ قادمةٍ .

عند ذلك صاح أحد الجالسين مُبْتسِمًا : « تمهّل يا سيّد مونشهاوْزن ، لقد كان فى نيّتك أن تحدّثنا عن تلك السّفينة الهائلةِ التى أقلتك فى عوْدتِكَ من أمريكا ! »

فأجابَ البارونُ وما زال مُمْسِكًا بقبضَةِ الباب :

— نعم نعم ! ولـكن ليس لدىّ ماأُفْضى به، إذ كلُّ ماهُنالك أنّ السّفينة كانت من الضخامة والعِظَمِ بحيث إن الإنسان لا يمكنُه أن يُبْصر طولها من المُقدّمَة إلى الدفّة بالعيْن المُجرّدة إلا إذا استعان بمنظارٍ مُقرّبٍ، وكان لـكلّ راكب أن يستعينَ بما لا يقلُّ عن خمسة من الملّاحين وثلاثةٍ من الصّبْيان يُرْسلهم إلى قبطان السفينة للاستفسار عن مهبّ الريح ـ والآن أنعموا مساء !

وما إنِ انْتهَى البارونُ من كلامه حتى أغلَقَ البابَ من ورائه ، وأخذ الجالسون يُنْصِتون لوقْعِ أقْدامه وهى تبتعد وقد غالبَتْهُم الدهْشة بسبب رغبة البارون فى الخروجِ على هذا الوجْه من السُّرْعة ، ولـكن لم تمضِ دقائقُ حتى رأوْا البارونَ يعود أدراجَه ويدخلُ عليهم ليقول بصوتٍ جدّىّ :

أستميحكمْ عُذراً أيها السادةُ ، لقد نسيتُ ما كنت أُريدُ أن أُحدِّثكم به أصْلًا. لقد سألتُكم عشرين مرّةً عما إذا كنتم مافتئتُمْ تذكرون الجنرالَ العجوزَ « اسكِرابِنْدانِسكى » الذى تعرَّفتُ به فى « وَارْسو » وأنا فى طريقى إلى مدينةِ « بُطْرسْبرج » وقدرويْتُ لكم طرفًا من أخباره، فهو الذى وضع قُرصًا فضيًا على ثغرةِ جُمْجمتِه ليتسرَّبَ منها بخار النَّبيذ إذا مافعلت به الخمْرُ فعلَها ؛ لا أشكُّ فى أنكم تذكرونَه كما تدلُّ على ذلك هزَّةُ رؤوسكم ، والآن أرْوِى لكم قصةً غريبةً عن هذا الجنرال :

عند ذلك اقْتَرَبَ البارونُ من المائدة الَّتى كان حوْلَها أصحابُه جلوسًا وبدأ حكايتَهُ وهو واقِفٌ على قدميْه وفى شىءٍ من السرعةِ .

« حدثَ عند نُشوبِ الحربِ الرُّوسية التُّركيةِ أن كان الجنرال أحد الذين عادوا إلى الخدمةِ العسكريّة ووُكِلَتْ إليه مهمّةٌ خاصَّةٌ ، فكانت فرقته معسكرة عند مدينةٍ صغيرة على الحدودِ التُّركية نفسها . أما أنا فكُنْتُ على رأْسِ فرقَةٍ من «الهوسار» نازلًا عند قريةٍ مجاورة . وفى ذاتِ صباحٍ قابلْتُ فلّاحًا فى الغابةوهو فى طريقه ليجمعَ مِلءَ كيسَيْن من ثمر الصنوبر لزوْجةِ سيِّده الَّتى كانت مُغْرمةً به ، فرأيت أن أصْحب هذا الفلّاح فى مهمته، وبينما كنَّا نملأُ الكيس إذا بصراخ وهَمْهَمةٍ تسْتَرْعى أسْماعنا وتلا ذلك ظهور دُبٍّ عظيمِ الْجُثّةِ أخذيقتربُ من العربةِ المَوْسُوقةِ بالصَّنَوْبر وطفق يُطعِمُ نفسَهُ منه بشهيَّةٍ زائدة ؛ وكنَّا إذْ ذاك نعبعيدَيْنِ عن مكان

العربةِ التى تركتُ فوقها بندُقيتى ، أما الدّبّ فوقف هادئًا وكأنّه ينتظر أن تقدِّمَ له حِملاً آخر من الصَّنَوْبر!



وفى أثناء ذلك كان الفلّاحُ قد أخرستْه الدّهشةُ ، أما فرسه فقد تولّاها الفزعُ فراحت تثِبُ فى مكانها وتُحاول الإفلات وتدور يمنةً ويسرة منذ أن أحسّت باقترابِ الدُّب منها، فلما أن عاد الفلّاح إلى صوابه صاح بها فانطلقت مُندفعةً إلى الطّريق تحمل الدب الذى لم يُحاول الوثوبَ من العربةِ المُنطلِقةِ بل اكتفى بأن عاد إلى صراخه وعويلِه . ولعلّ ذلك كان سببًا لاندفاع الفرس التى كانت تجرى وكأنّها فى سِباقٍ حتى اندفعتْ إلى المعسكر وهى تجُرُّ العربةَ وعليها هذا الدبُّ

وهو لا يفتأ يصرخ ويُعْوِلُ .

وفى تلك الساعة كانت الجنودُ مصطفَّةً فى انتظار قدوم الجنرال اسكرابِنْدِانسكى للتفتيش عليها ، كما وقفَتْ مئات من النَّظَّارة لمُشاهدة هذا العرض، وعند ما لمحت هذه الجموعُ عربةً قادمةً من بعيد وقد غمرتها سحابة من التُّراب أسرع رجالُ الفرقةِ الموسيقيَّة إلى آلاتهم وأسرع حامِلو البيارق إلى أعلامهم ؛ وعند ما اقتربت الزَّوبعةالرَّمْليةوبلغ الأسماعصوت العربةِ المقتَرِبةِ ، صاح قائدُ الفرقةِ «إنَّه الجنرال!» عنـد ذلك بدأتِ الفرقةُ الموسيقيَّةُ بعزف النَّشيد الرُّوسىّ الوطنى وأخذ حامِلو البيارق فى تلويح أعْلامهم ، ودوَّتْ فى الفضاء صيْحةُ آلافٍ من الحناجر تُنادى: ليحيا صاحب السَّعادة الجنرال «فُون اسكَرابِنْدانسكى» ليحيا !

وفى وسط هذا التَّهليل والتَّـكبير وبيْن صفوف الجنود والنظّارة اندفعَتِ الفرسُ ، ثم كبَت على الأرض ! وبيْن أكياس الصنوبر التّى فرغ نصفُها انتصب الدبّ وقد أصمَّتْهُ الدهشةُ ، وراحَ يقلِّبُ النَّظرحواليْهِ !

أما أنا وصاحب العربةِ فطفِقْنا نجرى وراءها ، ولـكنَّ الفلّاح سرعان ما عاد على أعقابه وتركنى أواصِلُ السَّيْرحتى وصلْتُ مقطوع الأنفاسِ إلى المسكر فى الدقيقةِ التى وصلَتْ فيها العربةُ ، وقبل أن أتمَهّل قبضتُ على الدّبّ بيدٍ واحدة ورفعته فى الهواء وصحت: ليحيا صاحب السّعادة الجنرال! ثم ألقيْتُ به على الأرض فتهشَّمَتْ أضلاعُه ودُكَّتْ عنقُه !

عند ذلك صَمَتَتِ الموسيقى ، وصَمَتَ الهتاف ولم يرتفع إلّا صوتٌ واحدٌ كسر هدْأَة هذا السُّكون ، ذلك صوت قائد الفِرقةِ الذى أخذ يُنادى بأعْلى صوْتِهِ « إنَّه البارون فون مُونشِهاوزِن » وليس صاحب السَّعادة « اسكرابِنْدانِسكى »

فأجابه أحد الجنود :

« لا ياسيِّدى إنه الدبّ صاحب الصَّنَوْبر » !

...

وعندما كفّ الجالسون عن الضَّحك والتَّهليلِ انْحنَى البارون شاكراً، وقبْل أن يُغادِرَ المكان تلفَّتَ حوْله وقال :

« عقاباً لما اقترفَهُ هذا الدبّ الجرىء ، الذى حاول أن يغتصِب اسم صاحب السَّعادة رأيتُ أنْ أُحنِّطه وأحشُوَهُ تِبْنًا . فإذا حدثَ وزار أحدٌ منكم المَتحفَ الحيَوانى فى مدينة « كييف » فسوفَ يرى بعينيه هذا الدّبّ .

والآن أنعموا مساءً !




Bibliotheca Alexandrina
0415752